نشأة الاسكندرية

وتواصل نهضتها العلمية

تأليف
خالد أحمد حربى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية



ملتقى الفكر
٤٤ شارع سوتير - الأزاريطة - الإسكندرية
ت : ٤٨٤٤٦٢٣

نشأة الإسكندرية

وتواصل نهضتها العلمية

إسم الكتـــاب : نشأة الاسكندرية وتواصل نهضتها العلمية
إســم المــؤلـف : خالد أحمد حربى
الـنــاشـــــــر : ملتقى الفكر
٤٤ شارع سوتير - الأزاريطة - ت : ٤٨٤٤٦٢٢
المطبــــعـــــة : دار الجامعيين لطباعة الأوفست - ت : ٤٨٦٢٠٠٤
رقــم الإيـــداع : ١٠٩٤٨ / ٩٩

نشأة الإسكندرية

وتواصل نهضتها العلمية

تأليف

خالد أحمد حربي

ملتقى الفكر
٤٤ش سوتير ـ الأزاريطة
✆ ٤٨٤٤٦٢٣ اسكندرية



بسم الله الرحمن الرحيم

[..اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم..]

(البقرة آية 61)

إهداء

إلي

قائد مسيرة إحياء الإسكندرية.. مجدد حضارتها
وطبوغرافيتها القديمة
.. اللواء المحجوب محافظ البلد

إلي

القائمين على إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة...
ترقباً لاستعادة مجد غابر

خالد حربى

مقدمة

ما أن رأى الاسكندر الأكبر «جزيرة» فاروس» - التى رآها فى منامه أولاً - حتى صاح قائلاً : «هنا سأبنى مدينتى التى طالما حلمت بها». وتشهد جميع العصور التى مرت بها الإسكندرية منذ إنشائها حتى الآن على «عبقرية المكان» فقد كان دخول الاسكندر مصر وآسيا فى القرن الرابع قبل الميلاد بداية لعصر جديد، إذ انتقلت معه الحضارة الأغريقية متخذة من مدينة الإسكندريه التى أنشئت سنة 332 ق.م مركزاً لها. فشهدت الإسكندرية منذ ما يقرب من ثلاثة وعشرين قرناً من الزمان نهضة علمية عالمية جعلتها تحمل مشعل الثقافة والعلم فى العالم، وذلك فضلاً عن هيمنتها على طرق التجارة الرئيسية بين الشرق والغرب.

ونظراً للأهمية التى تكتسبها دراسات «تاريخ العلم» حالياً على مستوى العالم، فإن تراث مدينة الإسكندرية القديمة، والذى تمثل فى مكتبتها وما قدمته من إنجازات علمية وأدبية أثرت فى العالم أجمع، هذا التراث يكشف بوضوح عن تطور الحركة العلمية والثقافية فى فترة من أهم فترات تاريخ البشرية بصفة عامة، وليس أدل على ذلك من أن الدراسات والبحوث مازالت تجرى - على مستوى العالم - حتى اليوم لتكشف عن ازدهار الحركة العلمية فى مكتبة الإسكندرية القديمة، ومدى الدور الذى لعبته فى تقدم البشرية.

أما أكبر دليل «حى» على أهمية هذه الحقبة الفريدة بإتفاق مثقفى العالم هو مشروع الإحياء الحديث لمكتبة الإسكندرية القديمة، والذى نأمل جميعاً أن تعود الاسكندرية به قبلة العلم والعلماء، كما كانت من قبل فى عهديها البطلمى والرومانى.

ومن هنا يأتى هذا الكتاب - كمشاركة من جانبى فى ملحمة الإحياء الحالية - اقلب من خلاله صفحات من تاريخ الإسكندرية الطويل، وأقف عند بعض منها، تلك التى تشكل فصوله، وهى كما يلى :

الفصل الأول : فتوحات الاسكندر.

الفصل الثانى : نشأة الاسكندرية والمكتبة.

الفصل الثالث : بعض الملامح العلمية والأدبية لمكتبة الاسكندرية.

الفصل الرابع : تطور تأثير مكتبة الاسكندرية ،الطب نموذجاً.

الفضل الخامس : تراث الإسكندرية المخطوط وأهميته.

الفصل السادس : أبوريان السكندرى بين الأنا والآخر.

الفصل الأول

فتوحات الاسكندر

فتوحات الاسكندر

فى عام 359 ق. م أصبح فيليب الثانى ملكاً على مقدونية. وكان أسلوبه السياسى هو الحيلة قبل القوة.

ففى عام 350 ق. م أحتل فيليب إلليريا (يوغسلافيا حاليا)، وبعدها تراس (تراقيا) وتسالى. وفى عام 338 ق. م أنتصر على ثيبس (طيبة) وأثينا فى كايرونيا، ثم بعد ذلك فى بوئيوتيا التى أعطته أخيراً السيادة على اليونان. وبعد انتصاره دعا كل دويلات الأغريق للاجتماع فى كورنيث واقترح عليهم الاتحاد تحت قيادته، وذلك لغرضين : أولاً : لمنع أى نزاع داخل اليونان. وثانيا : للقيام بغزو الامبراطورية الفارسية للانتقام لما حدث فى القرن الخامس ق. م من انتهاك الفرس لليونان. وقد ظل هذا الاقتراح لوقت ما مجرد فكرة، ورفضت أسبرطة فقط الاتحاد مع فيليب عسكرياً، ولكن قبل أن يستطيع فيليب تنفيذ فكرته، أغتيل عام 336 ق. م وترك تنفيذ فكرته لمن يخلفه وهو الاسكندر إبنه [1]. من زوجته أولمبياس، ولد فى بيلا سنة 356 ق. م. وقد يكون ليسمياخوس أول من علمه، إلا أن أرسطو قد تولى أمر تعليمه بدءاً من الثالثة عشر من عمره فى علوم الأخلاق، والسياسة، والفلسفة، وفن الحكمة[2].

الاسكندر القائد :

كان الجيش المقدونى الذى قاده الاسكندر بعد وفاة أبيه يُعد أحسن الجيوش تنظيماً وتسليحاً وتدريباً بطريقة لم تشهدها اليونان فى أى وقت سابق. وكان الفرسان المقدونيون فرساناً ممتازين. وكانوا مقسمين إلى كتائب، ولكل كتيبة قائد. ويعتبر فيليب أول من أدخل نظام تسلسل الرتب بين الضباط فى الجيش الأغريقى. وقام بتسليح قواته بطريقة حديثة، فجعل الدرع أصغر حجماً، واستبدل الرمح الذى طوله 80 قدم بآخر طوله 13 قدما.. ويعتبر الاسكندر أول قائد يدمج قواته الخفيفة الحركة بالأسلحة الأخرى، مثل استخدامه لمدفعية الميدان التى تحمل على ظهور الدواب فى جميع حملاته. وكان للاسكندر

13 من كبار الضباط يعملون فى هيئة أركان حربه الخاصة، ومجلس إستشارى يتكون من 8 آخرين، وكان يرافق جيش الاسكندر فى غزواته المهندسون العسكريون، ومهندسو التعدين والبحث عن المياه، وعمال للبناء، وخبراء فى البحرية، ومهندسون معماريون مثل دينوقراطيس مصمم مدينة الاسكندرية، علاوة على خبراء فى المساحة والجغرافيا، وعلم النبات، والأطباء، ومجموعة خاصة لأعمال السكرتارية، بالإضافة إلى مؤرخ رسمى (3).

ولقد أمضى الاسكندر الفترة ما بين 336 إلى 335 ق. م فى تأمين قاعدته الداخلية.. وفى ربيع سنة 334 ق. م قام بغزو اسيا الصغرى بواسطة 30.000 من المشاة، و 5.000 من الفرسان، و 160 سفينة. وكان من بين كبار الضباط الذين صاحبوه فى هذه الحملة أربعة من ملوك المستقبل وهم : بطليموس، وليزيماخوس، وسلوقوس، وأنتوجينوس. وكان على الاسكندر أن يغزو الأمبراطورية الفارسية من الدردنيل إلى البنجاب، وقد شجعه على هذا الغزو ضعف دارا الثالث والفوضى التى كانت منتشرة فى امبراطوريته بالرغم من وجود أعداد هائلة لدى الفرس وتعززها الثروة الطائلة (4).

وبعد ذلك واصل الاسكندر زحفه حول آسيا الصغرى عن طريق ساردیس، والمدن الساحلية (وهى ايفيسوس، وميليتوس، وهاليكارناسوس)، ثم خلال فريجيا.. وكان يهدف من وراء ذلك إلى تأمين خطوط مواصلاته قبل أن يوجه ضربته نحو الشرق البعيد.. وفى يناير عام 332 ق. م بدأ حصار الإسكندر لمدينة تاير (صور)، فواجه هو ورجاله متاعب من العواصف والقذائف المنهمرة عليهم من الأسوار، ومن السفن الحربية الصورية. وهنا أدرك الإسكندر أنه يحارب خصماً عنيداً قوياً، وليس أدل على ذلك من أن حصاره لمدينة صور قد دام سبعة شهور.. وبعد ذلك تقدم الاسكندر إلى سوريا ومصر، وأخضعهما بسهولة بالرغم من إصابته بجراح فى غزة، ثم بعد ذلك تحول إلى فارس ليتحدى الملك الفارسى دارا على عرشه. وانتصر عليه فى معركة من أعظم المعارك التى حدثت فى العالم، وهى معركة جوجاميلا،

والتى اسفرت عن هروب دارا فى اتجاه الشمال الشرقى داخل بلاد ميديا، فتقدم الاسكندر نيستولى على أهم مراكز فارس، وهى بابل وسوسا وبيرسبوليس. ووصل إلى بيرسبوليس، ووصل إلى بيرسبوليس حيث أحرق قصر سيركسوس، وأمضى شتاء هذا العام هناك ليؤكد أن اليونان انتقمت انتقاماً كاملاً من فارس.. وفى أوائل عام 326 ق. م وصل الاسكندر إلى إندوس (نهر السند) .. وفى شتاء عام 328 ق. م أسر رجاله جميع من فى قلعة سوجديان (بخارى) .. وفى عام 327 ق. م عبر الاسكندر هندوكوش ومعه 27.000 مقاتل، وبعد قتال مرير مع قبائل باجور، وصل فى العام التالى إلى نهر الهايداسبيس، وهناك حقق انتصاره الرابع العظيم بعد قتال مرير.. وتعد المرحلة الأخيرة لهذه الحرب أفظعها جميعاً، فقد جرح الاسكندر فيها، ومات فى يونيو عام 323 ق. م، وكان عمره لايزال 33 عاماً، بعد حكم دام 12 عاماً و 8 شهور [5].

وكان الاسكندر يطلق اسمه على المدائن التى يقيمها فى البلاد التى يفتحها، فأنشأ الاسكندرية فى مصر، وفى وادى الفرات، وفى أقصى شمال شرق التركستان، وعلى ضفاف السند، وعلى شواطئ الخليج الفارسى. وكانت هذه المدائن بمستعمراتها من المقيمين المقدونيين والهيلينيين تمثل المراكز الدائمة للثقافة الأغريقية. وكانت اسكندرية مصر أشهر هذه المراكز، فقد ورثت نجم أثينا، وقدر لها فى عهد البطالمة (أو البطالسة) أن تصبح عاصمة العالم الهيلينى، وساعدها على ذلك استراتيجية موقعها الجغرافى بين قارات ثلاث، وسهولة الوصول إليها براً أو بحراً من الصين، والهند وشبه الجزيرة العربية.

وفى عصر «هيلينة الشرق» أصبحت الإسكندرية منارة الأدب والفن والعلوم[6]. وذلك على ما سنرى فى الصفحات القادمة.

ويرجع الدكتور نجيب بلدى [7]. مغزى تلك الفتوحات من وجهة الحضارة الأغريقية إلى التربية التى تلقها الاسكندر من معلمه أرسطو الفيلسوف. وقد كان لتلك التربية نتائج عظمى إذا قورنت بقصر المدة التى

استغرقتها بالفعل. وقامت مظاهرها فى نواح ثلاث : أدبية وعلميه وحضارية. فقد أنمى أرسطو فى نفس تلميذة شغفاً عظيماً باللغة والآداب اليونانية إلى حد أن أخذ الاسكندر على نفسه مهمة نشر ذلك الأدب، وتلك اللغة خارج بلاد اليونان. ثم غرس فيه حب العلم والبحث العلمى الطبيعى، إلى الحد الذى جعله فيما بعد يجمع إلى مشروعاته الحربية والسياسية،محاولات هامة فى البحث الجغرافى والعلمى بوجه عام. أما من الناحية الحضارية، فقد وطد أرسطو فى نفس تلميذه إرادة رفع العلم اليونانى مع العلم المقدونى فى جميع البلاد التى فتحها.

وبالفعل أصطحب أرسطو فى فتوحاته الأسيوية، أكبر ممثلى العلم والأدب فى عصره، وبعض الفلاسفة أيضاً، ومن بينهم بيرون Pyrrhon الفيلسوف الشاك. وقد أرسل الاسكندر أثناء إقامته بمصر رجالاً يحاولون اكتشاف منابع النيل، وأسباب فيضانه. كما درس مع بعض علمائه بالهند التربة وخصائص الأشجار والأعشاب التى لم يعرفها أهل اليونان. وعندما غزا شمال فارس، اتجه إلى بحر قزوين، ليعرف إذا ما كان هذا البحر بحيرة كبيرة مغلقة، أم جزء من المحيط. كذلك عندما انتهى من غزو الهند - وهو فى طريق عودته - سمع بوجود نهر عظيم يصب فى الناحية الشرقية من المحيط - وهو نهر الكنج - فرأى أن يتجه إليه مع جنوده، وأن يستقل عند وصوله إليه السفن لعلها تبلغ به إلى مصب النهر العظيم، طرف المحيط الشرقى، وربما طرف الأرض الشرقى أيضاً.. فكلف الاسكندر صديقه نيارك بأن يتابع البحر من مصب السند إلى الشمال على أن يستمر هو على البر مع جنوده، يستكشف البلاد الخاضعة له. فاخترق الاسكندر هضاب الهند، وفارس، دارساً معالمها، حتى التقى شمالاً بصديقه نيارك بالقرب من شاطئ الخليج الفارسى. ثم فكر بعد ذلك فى الاستمرار فى مشروعاته الاستكشافية الملاحية هذه، فرأى أن يوجه حملتين تقومان من مصب دجلة والفرات على الخليج الفارسى : أحداهما تدور حول الشاطئ العربى حتى مضيق باب المندب، ثم تتجه شمالاً فى حوض البحر

الأحمر حتى تبلغ مصر، والآخرى تنزل بعد المضيق جنوباً، وتطوف بالقارة الأفريقية، ثم تعمل على الاتجاه شمالاً حتى تبلغ باب هرقل. وقد نجح المشروع الأول بالفعل، أما المشروع الثانى فلم يستمر فيه هؤلاء الذين كلفوا به[8].

يتضح مما سبق أن الاسكندر ينتمى إلى قادة الحرب العظام، وهو معروف فى التاريخ بأسم «الاسكندر الأكبر».. الذى كان يقدم فى كل حروبه معايير جديدة للانسانية.. ففى كاريا احترم نظام حكم المرأة فى هذه البلاد، وقام بتعيين إمرأة فى منصب الحاكم لإحدى الولايات. وكان يحرص دائماً على عدم إنتهاك الحرمات الدينية لأى شعب يحكمه، وعلى سبيل المثال قام بإعادة بناء معبد ماردوك فى بابل والذى دمره سيركسوس.. ولكن عظمة الاسكندر الأكبر (الكبرى) تكمن فى عدم تمسكه بفكرة أرسطو التقليدية والتى تنص على أن اليونان المتحضرة يجب أن تكون بعيداً عن باقى العالم المكون من البرابرة. وقد قال الاسكندر لكاهن أمون فى مصر «**إن الله هو أب لجميع البشر**»، وهذا التصريح من الاسكندر يعتقد سير ويليام تارن أنه أول تصريح فى العالم لمبدأ أخوة البشر جميعهم. وقد تمتعت جميع الشعوب التى حكمها الاسكندر بالإحترام والمساواة فى المعاملة، وكان فى نيته أن يدمجهم فى جنس واحد.. ولكن حلمه لم يكتمل لأنه لم يستطع بناء كيان سياسى ثابت فى البلاد التى فتحها، فعندما مات، انقصمت عرى الامبراطورية، ولكن أصبحت وجهات نظره وآرائه من أهم وأعظم صور تطور المدنية والحضارة. وكانت أفكاره تشبه أفكار الرواقية، وأفكار الامبراطورية الرومانية، وأفكار الديانة المسيحية [9].

هوامش الفصل الأول

1) مونتجمرى، الحرب عبر التاريخ، ترجمة فتحى عبد الله النمر، مكتبة الأنجلو المصرية بدون تاريخ ص 94 - 95.

2) د. يسرى دعبس، الاسكندر الأكبر والاسكندرية رؤية للتأثير والتأثر بين الثقافتين اليونانية والمصرية القديمة، الاسكندرية 1996، ص 15. وراجع حياة الاسكندر تفصيلاً فى :

A. J. Festugiere : Lesdieux d'Epicure, Paris 1998, PP 1 - 24.

3) راجع. مونتجمرى، المورجع السابق، ص 96 – 98.

4) نفس المرجع، ص 98.

5) راجع نفس المرجع، ص 100 – 109، وراجع أيضاً، خالد حربى، مكتبة الاسكندرية بين الماضى والبحث الجديد، مقال منشور بجريدة اسكندرية اليوم بتاريخ 7 – 9 - 1998.

6) د. أحمد فؤاد باشا، التراث العلمى للحضارة الإسلامية ومكانته فى تاريخ العلم والحضارة، الطبعة الأولى 1983، ص 12.

7) د. نجيب بلدى، تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها، دار المعارف بمصر 1962، ص 17.

8) نفس المرجع، ص 18 – 19.

9) راجع مونتجمرى، المرجع السابق ص 109 - 110.

الفصل الثانى

نشأة الإسكندرية والمكتبة

نشأة الإسكندرية والمكتبة

سبق الحديث عن فتوحات الاسكندر الأكبر، وكيف أن حجافله قد استولت على آسيا الصغرى، ودانت له مصر، ثم فتح صور، وفارس، وغزا الهند..

وفى مصر كان الحدث الأُعظم المتمثل فى بناء مدينة عظيمة، إذ هب الاسكندر من نومه على إثر رؤيته لشيخ وقور ينشده قائلاً : «فى وسط البحار التى تسبح مصر فيها قامت جزيرة فاروس الزائعة الصيت» فأسرع الاسكندر لرؤية تلك الجزيرة، وما أن رآها، حتى صاح قائلاً : «هنا سأبنى مدينتى التى طالما حلمت بها». إذ أنه رأى أن تلك الجزيرة تصلح لإقامة مدينة عظمى، وذلك نظراً لما تتسم به من سمات فريدة منها [1] :

1) إمكان وصول مياه الشرب العذبة من النيل عن طريق الفرع الكانوبى.
2) وجود جزيرة صغيرة فى مواجهة تلك البقعة لاتبعد عنها أكثر من ميل واحد مما يمكن وصلهما معاً.
3) تعتبر هذه الجزيرة جبهة دفاعية أمامية للمدينة.
4) وجود بحيرة مريوط جنوب هذه اليابسة يشكل تحصيناً دفاعياً من ناحية الجنوب.

ولقد تحول الحُلم إلى حقيقة عندما بدأ المهندس الروديسى «دينوقراطيس Dinocratis» عام 332 ق. م تخطيط المدينة الجديدة وفقاً لأحداث القواعد فى فن تخطيط المدن.. فاختار لها شريطاً من الأُرض الرملية يقع بين بحيرة مريوط والبحر، وكانت تقع فى البحر قبالة هذا الشريط جزيرة فاروس Pharos التى وصلت بالأرض.. فنشأ عن ذلك ميناء واسع آمن فى الجانب الشرقى، وميناء أكبر منه، وإن كان أقل أمناً، فى الجانب الغربى.. ولقد أنتظم فى القسم الغربى من المدينة قرية راكوتيس القديمة التى أصبحت الحى الوطنى الخاص بالمصريين.. وعلى بضعة أميال فى الشرق كانت تقع مدينة كانوب Canapus (أبو قير).. وكانت المدينة مستطيلة الشكل يشقها من الشرق إلى

الغرب شارع فسيح مستقيم يسمى شارع كانوب (شارع فؤاد حاليا) تحف به الأعمدة والبواكى وتقطعه مجموعة أخرى من الشوارع الفسيحة [2]. ويحده من الشرق بوابة كانوب، ومن الغرب باب سدرة. أما الشارع الطولى الذى يمتد من الشمال إلى الجنوب فهو يقابل الآن شارع النبى دانيال، وكان يحده من الشمال بوابة القمر ومن الجنوب بوابة الشمس [3].

ولقد تم مشروع بناء المدينة على يد قائد الاسكندر على عرش مصر بطليموس الأول (سوتير) الذى أسس أسرة البطالمة، والتى حكمت مصر ثلاثة قرون، ثم زالت دولتهم بموت كليوباترا.

فشيدت الإسكندرية وأصبحت عاصمة لدولة البطالسة بدلاً من العاصمة القديمة «منف»..

وفى بادئ الأمر كانت المدينة صغيرة لا تصلح لإستخدامها عاصمة عندما تولى إدارة البلاد. فكانت ممفيس أول مقر لحكومته (بطليموس). ثم حصل بطليموس على جثمان الاسكندر بعد قليل من وفاته فى بابل عام 323 ق. م. وأحضره إلى ممفيس، ثم قام بنقله إلى الإسكندرية وسماه سيما - أى العلامة - ومن المحتمل أن يكون ملوك البطالمة قد دفنوا واحداً بعد الأخر في هذا المعبد المقدس الذى أحيط بالمدافن اليونانية. لكن لم يبق من هذه المدافن أى أثر معروف، وحتى عصرنا هذا لا يزال موقعها مجهولاً برغم الحفائر التي قامت بها البعثات الأثرية، خاصة فى المنطقة القريبة من جامع النبى دانيال والتى قيل أنها تحتوى على مقبرة الاسكندر. وإذا كانت كلمة سيما تعنى علامة أو نذير فقد أصبح معناها فيما بعد «شاهد قبر» وأحيانا أخرى كانت تعنى «الجسم» [4].

أما عن السبب فى اختيار الاسكندر لهذا الموقع بالذات لبناء مدينة الإسكندرية، فإن هذا الموقع لم يكن مجهولاً قبل عصر الإسكندرية، فقد جاء ذكر جزيرة فاروس فى ملحمة «الأوديسا» لهوميروس على أنها تبعد يوماً بالبحر عن أرض مصر، وكان هوميروس يقصد بالبحر الفرع الغربى للنيل،

ذلك لأن الجزيرة لا تبعد أكثر من ميل عن الشاطئ. أما موقع مدينة الإسكندرية الأن فكانت تحتله قرية للصيادين تدعى راقودة وتواجه جزيرة فاروس، ومن المعروف أن الاسكندر فى صباه كان ينام وتحت وسادته «الالياذة» و «الأوديسا» اللتان قرأهما مراراً وتكرارا، ولاشك أن جزيرة فاروس قد داعبت خياله المبكر [5].

وعلى جزيرة فاروس بنيت المنارة الشهيرة التى اعتبرت من عجائب الدنيا السبع، والتى كان يراها كل قادم إلى الاسكندرية عن طريق البحر على مسافات شاسعة. كان يرى المنارة قبل الجزيرة، ولذلك أصبحت كلمة فاروس تعنى المنارة قبل الجزيرة. وبهذا المعنى كانت فاروس خير اعلان عن الحركة التجارية المزدهرة فى الإسكندرية، وأفضل دليل على رخائها [6].

وكان اختيار الموقع كملتقى إستراتيجى لحضارات العالم القديم إختياراً موفقاً، فمنذ العصر الفرعونى كانت الإسكندرية على الساحل الشمالى لمصر، لذلك لم تستطع التخلى عن تأثير التقاليد الحضارية للعصر الفرعونى، حتى بعد أن أصبحت مدينة إغريقية، نظراً لأن المقدونيين كانوا إغريقى اللسان والفكر.

ولقد غدت الإسكندرية فى عهد بطليموس الأول أكبر ميناء فى البحر المتوسط حينذاك.. بل غدت عاصمة للعالم القديم بأسره.. وظلت الإسكندرية تتمتع بمكانتها الرفيعة طوال العصر البطلمى، ولما فتح الرومان مصر وحولوها إلى ولاية من ولايات إمبراطوريتهم الواسعة فى عام 30 ق. م، بقيت الإسكندرية مركزاً لحكم الوادى أكثر من ستة قرون أخرى إنتهت بالفتح العربى [7].

ولقد حكم البطالمة وادى النيل لمدة ثلاثة قرون من الزمان، لعبت الاسكندرية فيها دوراً كبيراً فى تاريخ مصر بصفة خاصة، وتاريخ العالم بصفة عامة، حيث كانت نقطة إلتقاء بين عالمين مختلفين، أحدهما شرقى فى نظمه ومعتقداته وقيمه ونظرته للحياة بوجه عام، ويضم أغلب المناطق الأسيوية

والإفريقية المتاخمة للقسم الشرقى من البحر المتوسط، والآخر غربى يختلف إختلافاً كبيراً فى كل هذه الأشياء وهو الجزر وأشباه الجزر الأوربية التى تضم مقدونية وبلاد اليونان إلى جانب المدن أو الدويلات اليونانية الواقعة على الشريط الساحلى الغربى لشبه جزيرة آسيا الصغرى [8].

ولقد شهدت الإسكندرية بصفة خاصة ومصر بصفة عامة إبان حكم الاسكندر وخلفائه حالة رواج تجارى وإزدهار ثقافى وأدبى، وكانت بمثابة إلتقاء لثقافات متعددة ومتباينة، وحدث نتيجة لذلك إتصالاً ثقافياً بين حضارتين عريقتين هما الثقافة اليونانية والثقافة المصرية القديمة وما تمخض عن ذلك من عمليات للتأثير والتأثر بين الثقافتين وإنعكاس ذلك فى مختلف جوانب الحياة الإجتماعية ومظاهرها المختلفة من حيث العلاقات الإجتماعية بين الجاليات المختلفة القاطنة بالإسكندرية وعمليات التكيف والتأقلم والتمثيل الثقافى، ثم الحياة الثقافية فى مجال الفنون والآداب والأمور الدينية، وكذلك الحياة الاقتصادية فى معظم الأراضى وملكيتها، والصناعة والتجارة والاحتكار والضرائب، وإنعكاس عملية التأثير والتأثر كذلك فى مجال الحياة السياسية وما يتبع ذلك من تأسيس المدن والتميز العنصرى، وأوضاع المصريين والإغريق، وكذلك التأثير والتأثر فى نظم الحكم والإدارة والقضاء[9].

يذكر الدكتور نبيل راغب [10]. أن الإسكندرية كانت فى ذلك الوقت بوتقة انصهرت فيها كل الأجناس التى وفدت إليها بحيث انقطعت صلتها تقريبا بالمناطق التى جاءت منها. كان سكانها يتألفون من طبقة حاكمة قليلة العدد من المقدونيين واليونانيين، وفئة كبار الكهنة والعلماء المصريين الذين تمتعوا بمكانة رفيعة فى نفوس الناس، وتعاونوا مع الحكام ذوى الشأن، وعدد عظيم من المواطنين المصريين، وجالية كبيرة من اليهود بحكم أن فلسطين كانت جزءا من المملكة البطلمية حتى حوالى عام 200 ق. م، وذلك فضلاً عن عدد من السوريين والعرب والهنود. وبذلك جسدت الإسكندرية بمفردها نظرية الاسكندر فى وحدة العالم التى تجمع بين الاختلافات الفكرية والدينية

فى حضارة مدينة واحدة، بدلاً من النظرية اليونانية التقليدية عن المدينة الدولة، أى أن الإسكندرية لم تكن عاصمة فحسب، بل مدينة عالمية.

وقد اضطر بطليموس مدة ما إلى إتخاذ مدينة «منفيس» مقراً لحكومته حتى إتمام بناء المدينة أو الجناح الملكى فيها على الأقل. وفى هذا الجناح أوصى بإنشاء المتحف «الموسيون» Moseiom، (أو الموسايون Mousaion)، أى معبد ربات الفنون والعلوم Mousai. والمقصود هنا بكلمة «متحف» معهد للعلم والدراسة، ألحق به معبد لتلك الربات، وذلك على مثال ما كان متبعاً فى تشييد المدارس الفلسفية اليونانية (11).

وقد خصصت فى هذا المتحف حديقة لدراسة علم النبات، ومجموعات حيوانية كبيرة يدرسها علماء الأحياء، ومبنى خاص للتشريح ومرصد للفلكيين(12).

وقد ألحق بالموسيون مكتبة خاصة كبرى وأطلق عليها المؤرخون اسم المكتبة الكبرى أو الأم تمييزاً لها عن المكتبة «الإبنة» التى ألحقت بمعبد السرابيوم Serapieom (أو السرابيون Serapeion) بعد ذلك. فقد أنشئ هذا المعبد فى عصر الملك بطليموس الثالث للإله سرابيس الإله الرسمى الجديد للدولة البطلمية، وكان فى الحى الشعبى من المدينة، حيث يقيم أكثر السكان من المصريين، وهو الذى يطلق عليه الآن اسم حى كوم الشقافة فى غرب المدينة. وكان هذا المعبد من الضخامة والروعة، بحيث طبقت شهرته العالم القديم بأسره، ويقال أنه كان أكبر المعابد القديمة على الإطلاق باستثناء معبد الكابيتول فى روما. وبطبيعة الحال ضم المعبد مكتبة، كما كانت العادة قديماً. ولكن مكتبة السرابيوم لم تبق مكتبة عادية، بل سرعان ما نمت كثيراً، ووضعت فيها الكتب التى ضاقت بها مكتبة الموسيون. وتدريجياً أقبل الناس أيضاً على مكتبة السرابيوم، وامتدت إليها الحركة العلمية والثقافية من الموسيون، وأصبحت المحاضرات والدروس تلقى فى أورقه المعبد والغرف الملحقة به (13).

أما عن تزويد المكتبة بالكتب اللازمة لها، فقد بذل الملك بطليموس فيلادلفوس - الذى عرف بحبه للعلم والثقافة، واتصاله بالعلماء والفلاسفة - كل ما وسعه لاقتناء الكتب من جميع أرجاء العالم المعروف آينذاك.

يذكر ابن العبرى أن بطليموس فيلادلفوس سمع أن فى السند والهند وفارس وجرجان وبابل وأشورَ فنوناً من الحكمة غير التى عند اليونان فتقدم إلى وزيره بالاجتهاد فى جمع كتب هذه الأمم وتحصيلها والمبالغة فى أثمانها وترغيب التجار فى جلبها. ففعل ذلك، فاجتمع من ذلك فى مدة قريبة أربعة وخمسون ألف كتاب ومائة وعشرون كتاباً. فلما علم الملك باجتماعها قال لوزيرة : أترى بقى فى الدنيا شئ من كتب العلوم لم يكن عندنا. فقال له الوزير: بقى عند اليهودِ كتب الهية أوحى الله بها إلى الأنبياء فنطقوا بها. فأمر أن يجد فى طلبها. وأستجيب طلبه.

ولم يقتنع البطالمة والمشرفون على المكتبة بتجميع الكتب فحسب، بل حرصوا كل الحرص على أن يحصلوا على المخطوطات الأصلية للكتب إدراكاً منهم لمدى الخطأ أو التحريف أو النقصان أو الزيادة التى يمكن أن تقع فى النسخ على مدى الأجيال. ومن أشهر القصص فى هذا المجال ما يرويه الطبيب الإغريقى المعروف جالينوس من أن بطليموس الثالث بعث إلى أثينا يطلب المخطوطات الأصلية لمسرحيات أبسخولوس، وسوفوكليس، ويوريبيدس التى كانت مودعة بصفة رسمية فى خزائن المدينة. ليقوم بنسخها فى الإسكندرية وردها ثانية. ونظير تسليمه لتلك الأصول أودع فى أثنيا مبلغ 15 تالنتون من الفضة ضماناً على سلامة المخطوطات. ولكن الذى حدث أنه أخذ المخطوطات ونسخها ورد النسخ واحتفظ بالأصل فى الإسكندرية، وخسر بذلك مبلغ الخمسة عشر تالنتون من الفضة وهو مبلغ غير قليل (15).. فى زمانه.

ولقد احتوت المكتبة على زهاء سبعمائة ألف كتاب فى القرون الاولى لظهور المسيحية، وأصبحت مركزاً لدراسات الأدباء والنحويين والفلاسفة والمؤرخين على سائر طوائفهم (16).

وكانت مكتبة الإسكندرية فى أشد الحاجة إلى البردى المصرى برغم أن اليونانيين استطاعوا صنع ورق بردى أيضا. لكن البردى المصرى كان نتيجة خبرة علمية وعملية لا تقل عن ثلاثة آلاف عام بحيث ظلت اصول صناعة البردى على ما هى عليه بعد ذلك فى الأزمنة اليونانية والأزمنة التالية، وظلت أيضاً الاختلافات واضحة فى الجودة والكفاءة بين البردى المصرى واليونانى. فكانت اللفائف المصرية تصنع من أوراق أكثر سعة وطولاً، وربما كانت تزيد فى بعض الأحيان على مائة قدم أما اللفائف اليونانية فكانت أصغر حجماً وطولا (أقل من خمسين قدما) وأقل احتمالاً للصمود فى وجه الزمن [17].

وقد مر على مكتبة الإسكندرية عدد من أمنائها يمكن ذكرهم على النحو التالى [18]:

1) ديمتريوس الفاليرى	حوالى 284 ق. م
2) زينودوتوس الأفيسى	284 - 260 ق. م
3) كاليماخس البرقاوى	260 - 240 ق. م
4) أبوللوينوس الرودسى	240 - 235 ق. م
5) أراتوسثنيس البرقاوى	235 - 195 ق. م
6) أريستوفانيس البيزنطى	195 - 180 ق. م
7) أبوللونيوس أيدوجرافوس	180 - 160 ق. م
8) أريستاخوس الساموترامى	160 - 145 ق. م

وقد ضمت المكتبة مؤلفات عديدة فى الفلك والطب والتنجيم والعمارة والهندسة والآداب. وقد واجه المصنف اليونانى صعوبات كثيرة فى عمليات التصنيف، لأنه كان عليه قبل الفهرسة أن يقرأ آلاف اللفائف من البرديات قبل تصنيفها، مع العلم أن أكثر المخطوطات القديمة لم تكن كلها تضم علماً واحداً إنما عدداً من العلوم والدراسات الإنسانية معاً، غير أنه من المؤسف أن أكثر هذه المؤلفات مع فهارسها لم تصل إلينا بسبب ضياع المكتبة، ولكن

وردت أسماء بعض هذه المؤلفات فى كتب المعاصرين لها والذين أتوا من بعدها بقليل [19].

ومن أشهر علماء «الموسيون» الذين توفروا على تنظيم الأعداد الضخمة من الكتب «كاليماخس» أبرز القرن الثالث ق. م. فقد وضع سجلاً بأسماء الكتب التى تحويها المكتبة أشبه بفهرست «ابن النديم» إذ جاء كما يلى :

1) شعر الملاحم والشعر الغنائى.
2) الشعر التمثيلى (التراجيدى والكوميدى).
3) مؤلفات القانون.
4) مؤلفات الفلسفة.
5) مؤلفات التاريخ.
6) مؤلفات الخطابة.
7) مؤلفات الطب.
8) مؤلفات الرياضيات.
9) مؤلفات الطبيعيات
10) متنوعات.

ومع مرور الوقت سارت مكتبة الإسكندرية مدرسة عالمية تضج بفطاحل العلماء والباحثين فى كافة العلوم، وأصبحت قبلة نظراءهم من مختلف الأقطار، إذ كان تعلم المرء فى الإسكندرية يعنى الاعتراف به كعالم.

وإذا كانت المدارس الفكرية تكتسب ملامحها من نتاج البيئة الحضارية التى تظهر فيها زمانياً ومكانياً، فان مدرسة الإسكندرية تعد بمثابة نتاج للعصر الهيللينستى، ذلك الذى انصهرت فى بوتقته الحضارة اليونانية مع الحضارات الشرقية القديمة فى عمومها، والتراث الحضارى المصرى بصفة خاصة.

أما عن بعض ملامح هذه الحضارة، فيمكن الحديث عنها فى الفصل القادم.

الفصل الثالث

بعض الملامح العلمية والأدبية لمكتبة الإسكندرية

بعض الملامح العلمية والأدبية لمكتبة الإسكندرية

لقد عاصرت الإسكندرية ظهور الأديان السماوية : اليهودية والمسيحية، وكان لذلك أثره فى الفكر الفلسفى والاتجاهات الروحية.

فجاءت الحكمة الهرمسية فى معرفة النفس تبحث عن خلاصها، ثم فى معرفة الإله الذى يتم خلاص النفس باتحادها به. وهى لذلك معرفة من نوع خاص، تتعلق من ناحية بمعنى الخلاص، ومن ناحية أخرى بالإله المحقق لهذا الخلاص. وهنا تتضح معالم الأفلاطونية التى دخلت فى تعاليم الهرامسة وتغلغلت فى علاجهم لمسألة النفس. وتنحصر الاختلافات بينهما فى أن الإجابات الهرمسية على المسائل المتعلقة بالنفس، ليست موضع نقاش ثم اقتناع عقلى، بل هى حقائق تقرر وتقبل عن إيمان وثيق. كما أنها لا تتخذ صيغة الاستدلال والبرهان، بل هى لغة الأسطورة وصيغة الاعتقاد الدينى [1]. فظهرت المجموعة الهرمسية التى تحتوى على مزيج من التعاليم الدينية والفلسفية.

وكان للهرامسة تأثير كبير فى علم السيمياء «الكيمياء» والذى ارتبط بالسحر وتحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب وفضة، فلمع أسم «بولوس المصرى» واسم «زوسيوس» الذى ألف ما لا يقل عن ثمانية وعشرين كتاباً فى الكيمياء.

وقد أمتد تأثير الهرامسة إلى نشأة علم الكيمياء العربى لدى رائده جابر بن حيان (132 - 185 هـ). كما أمتد تأثير تعاليمهم - وخاصة رحلة هرمس العقلية الروحية بين مختلف العلوم والفنون - إلى الفيلسوف الإيدلندى چورچ باركلى (1985 - 1735) صاحب الفلسفة اللامادية فى العصر الحديث، وذلك فى كتابه السلسلة [2].

وكان من مشاهير علماء الإسكندرية فى عهد بطليموس فيلادلفوس، العالم الفلكى الجغرافى المؤرخ أراتوستيس الذى قام بأبحاث عديدة فى الفلك

والجغرافيا وهو أمين لمكتبة الإسكندرية. وكذلك ألف بطليموس الفلكى كتاب «المجسطى» فى هذه المكتبة، وقد ظل العالم معترفاً بهذا الكتاب فى الفلك إلى عصر كوبرنيق، كما ظلت جغرافية بطليموس تدرس فى أوربا زهاء أربعة عشر قرناً، وقد عرفنا عن طريقها كروية الأرض وقطبيها ومحورها وخط الاستواء، والدائرتين القطبيتين واختلاف مناخ الأقاليم على سطح الأرض، وكذلك أوجه القمر (3).

وفى الإسكندرية تم ترجمة التوراة من العبرية إلى اليونانية على يد إثنين وسبعين حبراً من أحبار اليهود، لذلك سميت بالقراءة السبعينية Septugint، وهى معتمدة حتى اليوم ويفضلها البعض على سائر القراءات (4).

ويعتبر فيلون السكندرى (ولد بالإسكندرية حوالى 30 ق.م) أشهر فلاسفة اليهود فى القرن الأول الميلادى، وهو زعيم مدرسة فكرية أنشأها فى الإسكندرية جمعت بين التوحيد اليهودى وفلسفة أفلاطون (5).

فقد عمل هذا الفيلسوف بكل طاقته على التوفيق بين الإيمان بصحة الكتاب المقدس ووحدة الله المنزة عن العالم، وبين أصحاب التعاليم الفلسفية، وهى الفلسفة اليونانية فى نظره.

ولقد استخدم فيلون طريقة التأويل الرمزى أو المجازى التى وجدت فى عصره، وشاع استخدامها فى العالم الأغريقى.. فأستعمل فيلون هذه الطريقة لتأويل قصص التوراة، ومنها قصة الخليقة، فأول خلق الله، العقل السماوى النقى الذى يحيا بالفضيلة الكاملة، ثم خلق عقل آخر، وهو العقل الأرضى الذى يرمز به إلى آدم، ثم خلق عاملاً مساعداً له، وهو الأحساس الذى يرمز به إلى حواء، وهذه تغويها اللذة والسرور والشهوة ويرمز بهم إلى الحية، ولكن بذور الأمل والرجاء فى النفس لا تموت ويرمز بها إلى اينوس، حيث تعود النفس وتشعر بالندم الذى يرمز به إلى أدريس، ثم تكون العدالة التى يرمز بها إلى نوح، ثم التطهر التام الذى يرمز به إلى الطوفان (6).

وقد اتحدت القيم الأخلاقية والدينية والفلسفية فى مدرسة أفلوطين [7]. شيخ الإسكندرانيين وصاحب الفلسفة الروحية التى أثرت فى الفكر الفلسفى برمته، إذ اصطنع الفلاسفة المسلمون كالكندى، والفارابى وابن سينا وابن رشد كثيراً من نظرياته إلى جانب نظريات أرسطو. وبالمثل أخذ الغربيون كثيراً من نظرياته وآرائه وبخاصة القديس أوغسطين، وديونيسيوس الاريوباغى، وسكوت أوريجينا وغيرهم. كما أمتد تأثيره إلى الفكر الغربى الحديث والمعاصر.. ويمكن تلمس آراؤه عند كثير من الفلاسفة الغربيين محدثين ومعاصرين، عند ديكارت وليبنتز، واسبينوزا، وهوايتهد، وكارل ياسبرز، وشلنج وغيرهم [8].

ومع أن أفلوطين قد عاش فى فترة من أكثر فترات الامبراطورية الرومانية اضطراباً، إلا أن فلسفته لم ترتبط بأى من الموضوعات الإجتماعية والسياسية، بل وحتى الأخلاقية التى سادت فى هذا العصر. وذلك فيما عدا طابعها الأخروى، والذى كان يشكل لوناً من رد الفعل السلبى على الظروف القائمة. فقد كان الهرب من العالم مظهراً عاماً لثقافة القرن الذى كان يعيش فيه أفلوطين [9].

وقد انعكس هذا المظهر على مدرسة أفلوطين التى أسسها فى روما، والتى أنضم إليها الكثيرون من مختلف الشعوب والمهن، وقيل إن الامبراطور جاليان Galian، والامبراطورة سالونين Salonien كانا من تلامذته [10].

فلقد تميزت هذه المدرسة بإجتماع صفوة المثقفين فكان منهم الأطباء والشعراء والشيوخ Senates يناقشون ثمرات الثقافة الرومانية فى العلم والفلسفة والأدب. هذا إلى ما كانت تتميز به من طابع روحى تطهيرى عميق، الأمر الذى جعل منها محفلاً دينياً وثنياً معارضاً للدين المسيحى الجديد، ويقدم لأتباعه ديناً فلسفياً تحل أقانيمه الثلاثة : الواحد، والعقل، والنفس محل الثالوث المقدس المسيحى : الآب، والابن، والروح القدس، وذلك رغبة منه فى استمرار اجتذاب المثقفين بعيداً عن المسيحية بما يقدمه من غذاء

عقلى وروحى صوفى متناسق [11].

ومن ذلك يتضح هدف أفلوطين من هذه المدرسة، وهو أن تكون نبراساً يهدى النفوس إلى التقوى، والصلاح. وليس أدل على ذلك من أنه كان يصرف تلاميذه ويحثهم على حياة الزهد والتقشف التى توصل إلى شفاء النفس وذلك بالتجرد عن جميع العلائق والشهوات [12]. وهذه الحياة إن دلت على شيئ، فإنما تدل على أن صاحبها كما قال القفطى [13]. حكيما. أو كما وصفه الشهرستانى : بالشيخ اليونانى [14].

وهذا ما قامت عليه فلسفته، إذ يرى أن الغاية من الفلسفة بصفة عامة هى الإرشاد إلى الطريق الذى يصل بالإنسان إلى إفناء ذاته فى الوحدة الإلهية، وذلك عن طريق التجربة الروحية القائمة على الوجد، والكشف، والذوق.

ولما كان محور هذه الفلسفة هو الله، أو العالم المعقول، ومن العالم المعقول ينتقل الإنسان إلى العالم المحسوس أو الأرضى، ثم يرتفع ثانية من هذا العالم إلى العالم المعقول أو الوحدة الأولى، لهذا فإن فلسفة أفلوطين إنما تنقسم فى الواقع إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

الأول : العالم المعقول.

والثانى : عالم المحسوسات.

والثالث : العودة من عالم المحسوسات إلى العالم المعقول.

وتشكل هذه الأقسام الثلاثة مجتمعة مذهب أفلوطين الفلسفى، والذى يدور حول مسيرة النفس فى هبوطها إلى العالم الأرضى، ثم صعودها إلى العالم العلوى، متخذة فى رحلتها هذه معالم طريقين، أحدهما هابط تدريجياً من الواحد إلى العقل الكلى، إلى النفس بأنواعها المختلفة حتى أدنى الحقائق ثبوتاً، وهى الأجسام المحسوسة. وفى هذه الحركة الهابطة تتم عملية الفيض أو الصدور [15]. فتصدر الكثرة عن الوحدة، أو تفيض الموجودات عن الله كما تفيض الأشعة عن الشمس. هكذا قال أفلوطين.

ويمكن تلخيص تاريخ الفيزياء والتكنولوچيا الهلنستية فى عالمين إثنين هما : كتسيبيوس الاسكندرى Ctesibioso of Alexandria، وفيلون البيزنطى الاسكندرى Philon of Alexandria.. ففيما يختص بكتسيبيوس فقد ذكر عنه أنه صنع آلة موسيقية على شكل قرن وقام بتركيبها على تمثال أرسنوى أقامه لها شقيقها وزوجها بطليموس الثانى حوالى 270 ق. م. وقد قام بالعديد من المخترعات والتجارب العلمية ذكرها فى أحد كتبه. ومن مخترعاته مضخة ضاغطة وأرغناً مائياً وساعات مائية.. أما المضخة فقد أدرك الحاجة إلى الأجزاء الرئيسية الثلاثة التى تتطلبها وهى : الاسطوانة والكباس والصمام.. أما الأرغن المائى الذى سمى باسم «هيدروليس» Hydraulis فكان عبارة عن تطبيق مبدأ المضخات على الموسيقى، بمعنى أن الهواء اللازم للآلات الموسيقية الهوائية كان يدفع بواسطة الآلة بدلاً من فم ورئتى العازف.. ولعل جميع الأرغنات ليست سوى تطوير وتحسين للأرغن الذى استنبطه كتسيبوس.. أما الساعات المائية فهى نتيجة لتحسينات سابقة، غير أن كتسيبيوس أحدث تحسينا ملموساً على نظام الساعات، فبعد أن كانت الساعة الشمسية لا يصح استخدامها إلا حين سطوع الشمس، وبعد أن كانت الساعة المائية غير منضبطة فى إفراغ قارورة الماء من حيث السرعة، فقد جاء كتسيبيوس وعمل على ضبط سرعة التفريغ والتمكن من متابعة انقضاء الوقت، وقد أدرك أن سرعة التفريغ تظل ثابته بشرط أن يبقى ارتفاع الماء فوق فوهة التفريغ ثابتاً، وأن تكون مقاسات فتحة التفريغ ثابتة وموحدة [16].

أما فيلون البيزنطى فيعتبر أيضاً من الميكانيكيين الهلنستيين، وقد عاش فترة فى الإسكندرية وفترة أخرى فى جزيرة رودوس. ومن المرجح أنه كان مهندساً حربياً يعمل فى خدمة الدولة.. وكان من أوائل الذين حاولوا الإحاطة بالفنون الهندسية الحربية خاصة فيما يختص بالهجوم والدفاع، وقد ألف رسالة ميكانيكية عظيمة تضمنت تحضيرات رياضية كنسج المربعات واستخدام الآلات فى الرافعات وبناء المرافئ وصناعة آلات القذف وبناء الأسوار والاستحكامات وتجهيز المعدات والموارد والدفاع عن الاستحكامات وأساليب

الحصار. كما ألف فى الجيل الروحانية والمائية [17].

أما عن العلم الرياضى، فقد أرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمتحف (الموسيون) منذ نشأته، وكان ذلك فى البداية على يد «أقليدس» صاحب كتاب «الأصول» والذى عاش وألف بمدينة الإسكندرية فى عهد بطليموس الأول. وكان أقليدس أرسطياً فى منهجه، أى فى إعطاء الصورة القياسية لبراهينة الهندسية، ولكنه أخذ الرياضة وتعلمها من الأفلاطونيين، واستمد منهم بعض قضاياها، كما استمد البعض الآخر من الفيثاغوريين.. ولا يمكن أن نؤكد أن أوقليدس كان استاذاً بالمتحف، أو أنه درس به وقتاً ما. والأغلب أنه زاره واجتمع بأساتذته ودرس الرياضة لبعض الطلبة. والمؤكد أنه ألف كتاب «الأصول» بمدينة الإسكندرية [18].

ويعتبر كتاب «الأصول» أو «أصول الهندسة» أقدم وأوسع كتاب فى الهندسة. ومما جاء فيه دراسات وعلوم عن الهندسة المستوية وتصريف المسلمات. ويتناول أيضاً المثلثات والمتوازيات ومتوازيات الأضلاع، ونظرية الاعداد المتوالية الهندسية وقياس الدوائر والكرات والاهرام والمجسمات.. بالإضافة إلى معالجته لعدد كبير من قضايا علم الجبر أو الجبر الهندسى، ونظرية الأعداد وسواها.. ونظراً لأهمية كتاب الأصول فقد ترجم من اليونانية إلى السريانية، ومن السريانية إلى العربية على يد الحجاج بن يوسف للخليفة هارون الرشيد (786 - 809). ومن المحتمل أن الكندى أول فيلسوف عربى أهتم باقليدس، ثم أهتم العرب بترجمات «الأصول» ونشروها مع تعليقات، ومن بين هؤلاء محمد بن موسى، وثابت بن قرة، وحنين بن اسحاق، وقسطا بن لوقا، وأبو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقى الذى ترجم المجلد العاشر مع تعليقات[19].

وقد قدم لنا أقليدس فى كتابه «البصريات» نظريات فلسفية أكثر مما هى علمية حول الضوء وحول الرؤية، حيث يرى أن العين ترسل أشعة بصرية تنتشر بخطوط مستقيمة وبسرعة كبيرة. ولذلك يرى إقليدس أن الأشعة

البصرية التى تخرج من العين لا تشكل مخروطاً مستمراً، ولكنها تفصل بعضها عن بعض وهذا يتيح تفسير حدة البصر أو القدرة الانفصالية. والشيئ لا يمكن أن يرى بصورة كاملة بنظرة واحدة، بل فقط بعد أن تغشاه النظرة وكل الأشعة البصرية لها السرعة نفسها [20].

وبالجملة استطاع «إقليدس أن يبهر العقول بما قدمه من أفكار جديدة فى مجال العلوم المختلفة. تلك الأفكار التى أثمرت ثمرات عظيمة خطت بالتراث العلمى السكندرى خطوات واسعة. فلاشك أن إقليدس قد أدى دوراً ثقافياً هاماً فى المحيط السكندرى فى فترة هامة من فترات تاريخ مدينة الإسكندرية. وتنحصر القيمة العلمية له فى المنهج الذى اتبعه فى كتابه «الأصول» الذى استعرض النظريات المتناثرة المعروفة عند الفيثاغوريين السابقين، وذلك بتنظيمها أو تنسيقها فى نسق علمى موحد محكم الحلقات، بحيث يتوقف فيه برهان كل نظرية لاحقة على نظريات أخرى سابقة عليها سبق برهانها فى داخل بناء منطقى يجمع كل النظريات المتفرقة، ويستند إلى «أصول» محددة قليلة ووثيقة خارج البرهان. وبهذا تمكن إقليدس من إقامة البنيان الرياضى للهندسة والحساب بثلاث عشرة مقالة تجاوزت كثيراً حدود الهندسة الحيادية[21].

وقد أقام بالإسكندرية مدة طويلة فى النصف الثانى من القرن الثالث قبل الميلاد، وأخذ العلم من علمائها (وخاصة كونون الساموسى، ودويزيتيه البيلوسى»، العالم الرياضى «أرشميدس» صاحب القاعدة المشهورة، وأحد كبار علماء الميكانيكا، وممن اهتم بدراسة المنحنيات الهندسية فى تغيرها المتصل[22]. وهو يعتبر أول من وضع كتاباً فى بيان الطريقة الهندسية لرسم المسبع المنتظم، وهذا الكتاب لم يصل إلينا بسبب ضياعه، ولكن وصل إلينا عبر الترجمة العربية التى قام بها ثابت بن قرة فى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى.. وقد أشتهر عن أرشميدس أنه بسبب اختراعاته الهندسية والحربية صمدت مدينة سيراكوز فترة أطول فى وجه القائد الرومانى ماركللوس. وقد

استخدم التكنولوجيا فى تلك الفترة المبكرة، فاستخدم الشمس منذ أكثر من ألفى سنة فى إحراق سفن الرومان المعادية لمدينة «سيراكوز» فقد كان يعكس الأشعة القوية بواسطة مرايا مقعرة كبيرة الحجم على قطع الأسطول فتشتعل فيها النيران (32).

، كما عنيت مكتبة الإسكندرية أيضاً بالدراسات والعلوم الإنسانية من أدب وتاريخ وعلوم لغة وغيرها، والتى عمل أصحابها على صبغها بالصبغة العلمية الموضوعية على غرار عمل نظرائهم فى العلوم الأخرى، فها هو «أريستارخوس» الذى يعد المبتكر الحقيقى للنحو، نراه يميز بين أنواع الكلم من اسم، وفعل، وصفة، واسم فاعل ومفعول، وضمير، وعلاقة التعريف، وحروف الجر، والعطف، ونرى «اريستوفانيس» يدخل نظام النقط والشولات والتمييز بين الوقفات المختلفة فى المخطوطات (24). وكان ميدان تخصص «زينودوتس الأفسى» ملحمتى «الإلياذة» و «الأوديسة» لهوميروس.. حيث عمل على الجمع بين لفائفهما، وعلى التحقق من نصها، وذلك ببيان ما أضيف فى مخطوطاتها إلى الأصل، وبتوضيح القراءات المختلفة لهذا الأصل، ثم عمل ثبتاً لأهم الكلمات الهوميرية، مفسراً كلاً منها أدق تفسير، كما عمل على تبويب الملحمتين وتقسيمهما (25).

وكانت مدرسة الإسكندرية الأدبية والنقدية متعددة الاتجاهات واالأنشطة والمجالات التى غطتها بجدارة وحيوية وعمق، سواء فى مجالات التاريخ الأدبى، أو النحو، أو فقه اللغة، أو البلاغة، أو النقد، أو التفسير. وقد تمتع النقاد والدارسون والشعراء بدعم الدولة المستمر لهم حتى يتفرغوا تماماً لدراسات تهم وأبداعاتهم، خاصة وأن مكتبة الإسكندرية كانت تمدهم بكل الكتب والمراجع القادمة من كل أرجاء العال الهيلينى، بالإضافة إلى القاعات الفسيحة والمضيئة المخصصة للقراءة والإطلاع، ولذلك استطاع كاليماخوس فى مجال السيرة والتاريخ الأدبى أن يكتب سلسلة أو قائمة من الكتب القيمة عن حياة الكتاب والأدباء والشعراء مع تحليل لأعمالهم. كذلك ألف

اراتوسثنيس كتابه «الكوميديا الأتيكية القديمة» الذى يقع فى عشرين جزءا ويجمع بين الدراسة التاريخية والنقدية لهذه الكوميديا. كما وضع الفلاسفة الرواقيون مؤلفات نقدية ودراسات أدبية قيمة مثل كتاب زينون «عن دراسة الشعر»، وكان لهذه الأعمال والدراسات وغيرها تأثير واسع المدى على الاتجاهات الأدبية والنقدية المعاصرة فى العالم الهيلينى أجمع، ثم على الدراسات الرومانية بعد ذلك [26].

وقد شهدت الإسكندرية فى العصر البطلمى إزدهاراً للفنون، وخاصة فنون العمارة، والنحت، والنقوش البارزة، والتصوير، وصك العملة.

أما فن العمارة فكان يشمل : المقابر (الآبار الجنائزية ـ الغرف الجنائزية)، والمنازل، والمعابد. ولقد زينت كل جدر المقابر بمناظر ونقوش دينية تكثر فيها العبارات المبهمة. أما عن طابع عمارة المنازل البطلمية وزخرفتها فإن القرائن توحى بأنه قد بقى بوجه عام مصرياً خالصاً أو إغريقياً خالصا. واهتم البطالمة الذين آمنوا بالديانة المصرية بإقامة معابد للالهة المصرية على نمط المعابد التى وجدوها بالوجه القبلى، ويعتبر معبد أدفو الذى شيده بطليموس الثالث أحسن نموذج لدراسة المعابد البطلمية. وكانت الإسكندرية فى عهد البطالمة مركزاً رئيسياً من مراكز النحت الهللينستى.. ومن أهم الصفات التى تميز بها النحت السكندرى هى القدرة على إستخدام المواد الصلبة مثل البازلت وحجر الجرانيت بألوانه المختلفة فى صنع بضع تماثيل ملوك البطالمة وملكاتهم، مثال ذلك التمثال الذى صنع من البازلت للملكة ارسينوى زوجة بطليموس الثانى والموجود فى متحف الفاتيكان بروما. أما النقوش البارزة فقد استعمل فنانو الإسكندرية فى عمل الرسومات والزخارف البارزة طريقة فنانى مصر القديمة.. كما امتازت مدرسة الإسكندرية بالتصوير الشخصى لملوك البطالمة وملكاتهم فى النحت والعملة، والتى توخى فنانو الإسكندرية الدقة والإتقان فيما صكوه منها وما حفروه على الأحجار الكريمة حتى أصبحت الإسكندرية بإجماع الآراء مركزاً هاماً لصناعة المجوهرات والزخرفة على

الأحجار.. وهكذا كان الفن السكندرى معبراً عن الحياة الاجتماعية إبان عصر البطالمة [27].

أما عن الطب، فقد عاد من اليونان إلى موطنه الأول مصر. وأخصص الصفحات التالية للحديث عن إزدهار الحركة الطبية فى مدرسة الإسكندرية، واتخاذها كمثال التطور تأثير مكتبة الإسكندرية فيما تلاها من عصور

هوامش الفصل الثالث

1) راجع د. نجيب بلدى، المرجع السابق، ص 109 – 111.
2) خالد حربى، مكتبة الإسكندرية بين الماضى التليد والبعث الجديد، م. س.
3) د. محمد على أبوريان، مرجع سابق، ص 316 – 317.
4) تروى حول هذه الترجمة قصة مشهور، وهى أن الملك بطليموس الثانى (285 – 246 ق.م) أرسل إلى حاخام بيت المقدس يطلب منه إرسال الكتب القانونية لدى اليهود ومعها عدد من رجاله الذين يتنقنون اللغة العبرية واليونانية ليقوموا بترجمتها فى الإسكندرية. فأجابه الحاخام إلى طلبه وأرسل إليه الكتب الخمسة من التوراة المعروفة باسم Pentaeuch ومعها إثنين وسبعين من رجال الدين ليقوموا بالترجمة المطلوبة. وتستمر القصة فى أن الملك البطلمى - على سبيل الاختبار - وضع كل واحد منهم فى غرفة مستقلة على جزيرة فاروس. وحين انتهوا من عملهم قورنت التراجم الإثنين والسبعين بعضها ببعض. فوجدت أمام عجب الجميع أنها مطابقة كلمة كلمة وحرفاً حرفاً (د. مصطفى العبادى، المرجع السابق، ص 16).
5) د. محمد على أبوريان، د. حربى عباس، دراسات فى الفسفة القديمة والعصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية 1992، ص 247.
6) راجع فى ذلك : د. ماهر عبد القادر محمد، د. حربى عباس، دراسات فى فلسفة العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية 1999، ص 55 – 56، د. أميرة حلمى مطى، الفلسفة عند اليونان، دار مطابع الشعب 1965، ص 288 – 289.
7) ولد أفلوطين Plotinus فى سنة 204 أو 205 فى بلدة ليقوبوليس Lycopolis (أسيوط حاليا) والتى ظل بها متعلماً حتى سن العشرين. ولما بلغ الثامنة والعشرين. رحل إلى الإسكندرية وتتلمذ على أساتذتها وخاصة «أمونيوس سكاس» والذى لازمه أفلوطين حتى تعلم منه الفلسفة اليونانية، وأكمل معرفتها وذلك على مدار أحد عشر عاما. وبعد ذلك بدأ فى مشروع «محاولة تقصى فلسفة الشرق للتعرف على الأفكار الهندية والفارسية بأن رافق حملة قام بها الامبراطور الرومانى جورديان Gordian إلى بلاط الفرس بقيادة سابور Sapor. ولكن الحملة منيت بالهزيمة وأغتيل الامبراطور الشاب، ففر أفلوطين إلى أنطاكيا ومنها إلى روما عام 244 م وبها أسس مدرسته المذكورة فى المتن. وقد عاش أفلوطين فترة طويلة مع المرض انتهت بوفاته عام 269 أو 270م فى مدينة كمبانيا.
8) د. أبو ريان، د. حربى عباس، المرجع السابق، ص 340.
9) ريكس وورنر : فلاسفة الأغريق، ترجمة عبد الحميد سليم، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1980، ص 276.

10) راجع معجم أعلام الفكر الإنسانى، تصدير د. إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1984.

11) د. محمد على أبوريان، تاريخ الفكر الفلسفى، جـ 2 م. س ، ص 326.

12) أحمد أمين، د. زكى نجيب محمود، قصة الفلسفة اليونانية، طبعة دار الكتب 1930، ص 320.

13) القفطى، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مطبعة السعادة 1326هـ، ص 170.

14) الشهرستانى، الملل والنحل، جـ 2، تخريج فتح الله بدران، ط الثانية بدون تاريخ ص 152.

15) د. عبد الرحمن بدوى، خريف الفكر اليونانى، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم بيروت، ط الخامسة 1979، ص 122.

16) د. عباس سليمان، د. حسان حلاق، مرجع سابق، ص 197 – 198.

17) نفس المرجع، ص 198 – 199.

18) د. نجيب بلدى، مرجع سابق، ص 43 – 44.

19) د. عباس سليمان، د. حسان حلاق، مرجع سابق ص 178 – 179.

20) د. عباس سليمان، دور العلماء العرب فى إحياء وتقويم التراث العلمى لمدرسة الإسكندرية القديمة، دار المعرفة الجامعية 1996، ص 27.

21) نفس المرجع، ص 20 – 21 – 22.

22) د. نجيب بلدى، م. س، ص 44.

23) د. عباس سليمان، د. حسان حلاق، م. س، ص 178 – 179.

24) خالد حربى، م. س.

25) راجع د. ماهر عبد القادر محمد، د. حربى عباس، دراسات فى فلسفة العصور الوسطى، م. س، ص 307 – 311.

26) د. نبيل راغب، المرجع السابق، ص 273.

الفصل الرابع

تطور تأثير مكتبة الإسكندرية

«الطب نموذجا»

لقد شهدت الإسكندرية تحت ظل البطالمة عودة الطب من اليونان إلى موطنه الأول بمصر [1]. وكان أشهر من نبغ فى الطب بالإسكندرية فى ذلك، طبيبان عظيمان هما :

1) هيروفيلوس الخالكيديسى [2]. Herophilus (300 ق.م)، ذلك الذى يعد مؤسس التشريح النظامى، حيث دلت كشوفه الكثيرة على أنه قام بفحص لتركيب الجسم البشرى كله، وذلك من خلال ما أتيح له من عدد كاف من الجثث مع حرية تشريحها، فهو. «أول مشتغل بالتشريح العلمى، واعتبرت مشاهداته كأنها كتاب جامع فى علم التشريح» [3].

ومن مآثر هذا الرجل - على حسب جالينوس - أنه قد قدم وصفاً مفصلاً للدماغ، وميز بين المخ والمخيخ، كما ميز بين أوتار العضلات وبين الأعصاب، وأطلق على الأعصاب اسم (أعصاب الحس). وقد فرق بوضوح بين الشرايين والأوردة، ذاهباً إلى أن الشرايين أسمك من الأوردة بست مرات. كما قدم وصفاً لكل من العين، والإثنا عشر Doudenum، والكبد والغدد اللعابية، والبنكرياس، والبروستاتا وأعضاء التناسل [4].

وقد أدخل هيروفيلوس تحسيناً على طريقة براكساجوراس فى فحص النبض بابتكاره ساعة مائية لقياس سرعته، وعد ضرباته. يقول بول غليونجى : وربما يكون هيروفيلوس قد أقتبس هذا الأبتكار من التعاليم السرية لأُطباء الفراعنة [5].

وقد اخترع هيروفيلوس أيضاً آلة استعملها المولدون لتقطيع الجنين داخل الرحم، وذلك فى الحالات الميئوس منها عند النساء الحبالا. وهو يرى أن حياة الجنين داخل الرحم فيزيقية وليست هوائية، وهذا ناتج عن اعتقاده بأن الشرايين تحوى دماً، وليس هواء.

2) أرازيستراتوس اليوليسى Erasistratus [6].

وهو يعتبر أول طبيب يرفض نظرية الرطوبات، وأول من فرق بين التدبير

الصحى (الوقاية)، وبين التداوى، وعلق أهمية أعظم على الوقاية، لذلك كان ينصح دائماً بمراعاة التغذية الجيدة، والرياضية، والاستحمام، وكان لا يعول كثيراً على فصد الدم، بل عارض الإسراف فيه، كما عارض العلاجات العنيفة، والافراط فى استعمال العقاقير [7]. كما أولى «الأنسجة والأوعية المحل الأول فى دراسة الأمراض، فشرح الجثث باحثاً عن سبب عضوى بها» [8].

وقد جاءت بحوث أرازيستراتوس التشريحية منصبة على الدماغ والقلب، والجهازين العصبى والوعائى. ومن قبيل ذلك أنه شاهد لفائف المخ، ولاحظ أنها معقدة لدى الإنسان أكثر منه لدى الحيوان، وقام بتتبع الأعصاب الدماغية حتى الدماغ نفسه.

وقد ارازيستراتوس وصفاً صائباً للسان المزمار ووظيفيته. ووصف الأذنين والبطنين من القلب، وأعلن عن وجود اتصال بين التشعبات النهائية للأوردة والشرايين [9]. وأهتدى إلى أن كل عضو من أعضاء الجسم يتصل بسائر الأعضاء عن طريق جهاز ثلاثى من الأوعية : شريان، ووريد، وعصب [10].

يتضح مما سبق أن الإسكندرية قد شهدت نهضة طبية مزدهرة فى عهدى: هيروفيلوس، وارازيستراتوس كعالمان مبتكران. إلا أن أتباعهما قد اكتفوا بالأعتماد على نصوصهما، وأكبوا على الجدل العقيم حولها، فلقبوا بالمتعفسين Dogmatists. وقد ثار عليهم بعد ذلك مبتدعوا الحركة التجريبية Empiricists، هؤلاء الذين تجردوا من كل تعاليم الطب الفلسفى، أو التأملى، وأعلنوا فى مقابل ذلك سيادة التجربة، واعتبارها المصدر الوحيد فى تعلم الطب، وقد امتاز هؤلاء - واشهرهم هيرقليطس - بمعرفة فائقة للعقاقير والسموم.

وقد ظهر بعد ذلك النفثيون Pneumatists الذين أرجعوا القوى الحيوية إلى روح حيوى يسرى فى الجسم (النفث). والتوفيقيون، والاصطفائيون Eclectics الذين أعلنوا عدم تحيزهم لأى مدرسة. وقد برز منهم : رفوس الأفسى، وأريتاكوس، وديسقوريدس صاحب موسوعة النباتات التى استفاد منها أطباء العرب.

«وفى وسط هذا العالم المتخبط سطع فى القرن الثانى الميلادى نجم عبقرى من أعظم عباقرة البشر» [11]. إنه جالينوس.

ولد حوالى 130 م [12]. بدأ دراسة الطب فى اليونان، ثم فى الإسكندرية، وأظهر نبوغاً فى معهدها [13]. فبرع «فى الطب والفلسفة وجميع العلوم الرياضية، وهو ابن سبع عشرة سنة، وأفتى وهو ابن أربع وعشرين» [14]. فجدد من علم ابقراط وشرح من كتبه ما كان قد درس وغمض على أهل زمانه.

لذا أعتبر جالينوس ثامن الرؤساء المرجوع اليهم فى صناعة الطب [15]. ولقد أشتهر جالينوس بنبوعه فى علم التشريح Anatomy الذى ألف فيه سبع عشرة مقالة فى تشريح الموتى، وكتاباً فى تشريح الأحياء.

وفى عام 162 م رحل جالينوس إلى روما، وهناك ألقى العديد من المحاضرات فى التشريح كانت سبباً فى شهرته وقربه من الامبراطور مرقص أوريليوس Marcus Auralius (161 – 180 م) الذى إتخذه طبيباً له.

وتعد كتابات جالينوس بمثابة القالب الذى انصب فيه الطب القديم، فلقد شيد بها بناءً متكاملاً من الطب يتفق من جانب مع فلسفته الرواقية Stoics، ومن جانب آخر مع النظرة الغائية Teleological للعالم، تلك التى ترى أن الطبيعة كلها حكمة، وأن كل جزء من أجزاء الجسم البشرى قد خلق لأجل غرض ما، حدد سلفاً.

وقد أسس جالينوس نظرياته وتعاليمه على معلوماته الدقيقة التى استنبطها من تشريح الحيوان، وملاحظة وتفحص الجرحى والمرضى وقد لاقت هذه الآراء الجالينوسية تأييداً مطلقاً من الكهنة المسيحيين [16]. ولم يجرؤ أحد على مناقشتها حتى عصر النهضة، إلا النذر اليسير من العلماء خوفاً من رميهم بالجهل والهرطقة [17].

أما عن كتب جالينوس، فهى بحسب الفهرست [18]. نحو ثمانية وخمسين كتاباً عدا الكتب الستة عشر المشهورة التى كانت تقرأ على الولاء فى مدرسة الإسكندرية، حيث ذكر ابن ابى أصيبعة أن المختار بن دفلان قال : «أن الاسكندرانيين الذين جمعوا كتب جالينوس الستة عشر وفسروها كانوا سبعة هم : إصطفن، وجاسيوس، وتادريوس، وايلاوس، وإنقيلاوس، وفلاذيوس، ويحيى النحوى.. وكان هؤلاء الاسكندرانيون يقتصرون على قراءة الكتب الستة عشر لجالينوس فى موضع تعلم الطب بالإسكندرية، وكانوا يقرأونها على الترتيب، ويجتمعون فى كل يوم على قراءة شئ منها وتفهمه، ثم صرفوها إلى الجمل والجوامع ليسهل حفظهم لها ومعرفتهم اياها. ثم انفرد كل واحد منهم بتفسير الستة عشر» [19].

ويذكر ابو الحسن على بن رضوان فى كتابه «المنافع فى كيفية تعلم صناعة الطب» ان الاسكندرانيين قد اقتصروا على الكتب الستة عشر من سائر كتب جالينوس فى التعليم، ليكون المشتغل بها أن كانت له قريحة جيدة، وهمة حسنة، وحرص على التعليم، فإنه إذا نظر فى هذه الكتب اشتاقت نفسه بما يرى فيها من عجيب حكمة جالينوس فى الطب، إلى أن ينظر فى باقى ما يجد من كتبه [20].

وقد امتاز تأليف جالينوس فى الطب بالجمع بين مختلف المذاهب السائدة فى جميع المدارس الطبية اليونانية منذ أبقراط حتى عصره، كما أنه جمع فى تأثره بالفلسفة بين أرسطو وأفلاطون والرواقيين. ولكنه لم يكن ملفقاً فحسب، بل كان رابطاً مركباً ومبتكراً فى ربطه هذا لمذهب متكامل فى الطب. وكان يعمل بوجه عام على معارضة التفسيرات الميكانيكية لأحوال البدن من صحة ومرض، فيلجأ إلى العلل الغائية، كما كان يعارض منكرى وجود الله والعناية الربانية. ولعل هذه المعارضة المزدوجة كانت من أسباب اعتماد الفكر الإسلامى والفكر المسيحى الوسيط على مواقفه فى العلم [21].

يتضح مما سبق مدى الشوط الكبير الذى قطعه أطباء الإسكندرية فى تقدم وازدهار هذا الفن، وكفى بما قاموا به من محاولات تشريحية جريئة فى ذلك الزمان الضارب فى جذور التاريخ تدليلاً على ذلك. أليس ما يدعوا إلى العجب أن يتم لأول مرة إجراء فحص شامل لجسم البشرى فاق ما قام به أبقراط وتلاميذه من بحوث تشريحية ؟!

لقد كان مسموحاً لعلماء التشريح فى مدرسة الإسكندرية فى ظل حرية دينية تحت إشراف الملوك أن يقوموا بالتشريح متى رأوا ذلك، وكان من نتيجة ذلك أن ظهر عصر ذهبى للتشريح، عظيم القدر اذا ما علمنا أنه ليس هناك ما يقارن به سوى عصر جالينوس (النصف الثانى من القرن الثانى ب. م) الذى يعد نهضة، وعصر فيزاليوس (القرن السادس عشر الميلادى) وذلك على حد قول سارتون [22].

وقد ترجمت معظم كتب جالينوس إلى العربية، فقد كان (أى جالينوس) أحب الأطباء اليونانيين إلى العرب، ومن أشهر تراجمته : حنين بن اسحق، وحبيش الاعسم، وعيسى بن يحيى، وإصطفن بن بسيل.

وعلى وجه التقريب فقد توفى جالينوس حوالى عام 200 م، وكانت وفاته بمثابة انتصاراً على كل المدارس الطبية المتنازعة فى عصره، وذلك بتوحيده للطب بشكل سيطر على الفكر الطبى حتى القرن السادس عشر الميلادى.

وهذا إنما يرجع إلى أنه كان مبتكراً حقاً، وإلى ربطه الطب والفلسفة بأواصر متينة فى عصر كان شديد الولع بالفلسفة، فقد «أقام الطب على نظرية موحدة تفسر كل ظاهرات الصحة والمرض بطريقة تروق للعقل المنظم» [23]. ولقد أخلص جالينوس لهذا الفن إلى الدرجة التى معها ضرب به المثل القائل : يموت الراعى فى ضأنه موتة جالينوس فى طبه.

ولكن اتباع جالينوس قد نهجوا نهج أتباع كل من ابقراط وتلاميذ هيروفيلوس، وأرازستراتوس، فاكتفوا بالنقل والتصنيف، لذا تكاد كتاباتهم أن

تكون منقولة عن أصل واحد، خالية من أى نزعة أصالة [24].

وأختتم الحديث عن مدرسة الإسكندرية بالإشارة إلى علمين آخرين ظهرا فى نفس المدرسة وكان لهما شأن فى بداية الطب العربى الإسلامى.

أولهما : هو بولس الأجنطى Paulus Aegineta مؤلف الكتب اليونانية المسماه «كتب الطب السبعة».

والثانى هو أهرن القس الذى وضع كناش Pandectes كبير بالسريانية ونقله ماسرجيس إلى اللغة العربية [25]. بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز.

إنتقال السلطة الطبية من الإسكندرية إلى بغداد :

لقد لاحظنا فيما أشرنا إليه فى حركة إزدهار الطب فى مدرسة الإسكندرية الطبية، واتضح لنا كيف أنه كان حركة علمية مزدهرة. وقد استمرت هذه الحركة إلى أوائل القرن السادس الميلادى عندما أغلق الأمبراطور «جوستنيان» هذه المدرسة واضطهد العلماء والفلاسفة، ففروا من الإسكندرية فى العصر الجاهلى عن طريق مدن «الرها» و «نصيبين» و «انطاكية» و «جنديسابور» فى بلاد فارس القديمة إلى بغداد وغيرها من المدن الإسلامية.

ويذهب بعض الباحثين [26]. إلى أن مركز التعليم الطبى قد انتقل من الإسكندرية إلى أنطاكية فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز. وفى هذا خطأ لأن التعليم الطبى كما يذكر الفارابى، ومن بعده ماكس مايرهوف قد انتقل من الإسكندرية إلى بغداد عن طريق الرها ونصيبين، وأنطاكية، وجنديسابور، وكان ذلك فى العصر الجاهلى بعد إغلاق مدرسة الإسكندرية وفرار العلماء والفلاسفة منها بعد إغلاقها على يد «جوستنيان» فى أوائل القرن السادس الميلادى، بينما ظهر الإسلام فى أوائل القرن السابع الميلادى. فهناك إذن قرن من الزمان بين إنتهاء مدرسة الإسكندرية وهروب علمائها إلى شمال فارس القديمة قبل ظهورالإسلام، يضاف إلى هذا القرن المدة التى تقع بين السنة الأولى للهجرة، وخلافه عمر بن عبد العزيز.

ولقد انفتح المسلمون فى عصرهم الأول على مدينة جنديسابور، وكانت مجمعاً علمياً وطبياً هاماً، كما انفتحوا على الإسكندرية، وكانت مركزاً علمياً وطبياً، ومن هنا وهناك جاءت عوامل وأسباب التطور، فكتابات الطب المشهورة كانت بالإسكندرية، وممارسوا الطب والأطباء كانوا فى جند يسابور، وبين هذين الطرفين بدأ التلاحم وبدأ العمل الدؤوب [27]. حيث تولى السريان نقل الكتب اليونانية إلى اللغة السريانية، ثم إلى اللغة العربية فيما بعد. وكانت مدرسة الطب التى انتقلت من الإسكندرية هى التى تولت عملية نقل التراث الطبى إلى العرب.

وكان الطب من أوائل العلوم التى عنى المترجمون السريان بنقلها إلى اللغة العربية لأن الخلفاء والأمراء كانوا يطلبونه بالحاح لعلاجهم وتمريضهم. ولهذا كان أوائل الأطباء عند العرب من هؤلاء السريان الذين تصدوا لتعريف بالكتب الطبية. ومن هؤلاء، حنين بن اسحق، وابنه اسحق، وما سرجويه، ويوحنا بن ماسويه، وجيش الأعسر.. وغيرهم [28].

وفى النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة كان لمدرسة جنديسابور أهمية كبرى، وكان عصر ازدهارها الأول فى القرن الخامس الميلادى فى أيام الملك خسرو أنوشروان بفضل العلماء النساطرة الذين طردوا من الرها آنذاك. وفى هذه المدرسة لم يكن الطب يدرس نظرياً فحسب، بل كان يدرس عملياً فى بيمارستان كبير، كان نموذجاً لما كانت عليه الدراسة من بعد فى العالم الإسلامى. وفيها أيضاً أتصل العلماء اليونانيون والسريان والفرس بعلماء الهند وتأثر بعضهم بعضا، وفى الطب العربى بقايا لهذا التأثير. وفى العصر الأموى لم يكن لمدرسة جنديسابور أى أثر فى قيام مدرسة طبية، ولو أن بعض الأطباء أتوا من هناك إلى جزيرة العرب وسوريا. وإنما بدأت العناية تتجه إلى هذه المدرسة فى أوائل حكم العباسيين الذين نقلوا عاصمة الملك إلى بغداد. فالخليفة العباسى الثانى «المنصور» قد استشار فى سنة 148 هـ =

865 م رئيس أطباء بيمارستان جنديسابور وهو جورجيس بن بختيشوع (تبعا للقفطى) حينما دعاه إلى بغداد. ومن ذلك الحين بقيت أسرة بختيشوع طوال ثلاثة قرون ذات مكانة كبرى عند الخلفاء [29].

وقد توالت ترجمة الكتب غير الطبية فيما بعد، بعد أن شعر المسلمون بأنهم فى حاجة إليها فى ثقافتهم الإسلامية الجديدة، فلقد عاش العالم الإسلامى حركة علمية مركزة وخاصة فى عهد الخليفة «المأمون» لترجمة الأعمال العلمية والفلسفية الموروثة من القدم، والتى تمثل من وجهة نظر تاريخ الفكر، إحدى العلامات المميزة، والأكثر أهمية فى الثقافة [30]. بصفة عامة.

والذى يهمنا فى هذه الدراسة هو أن نتعرف على أهم الكتب الطبية التى نقلت إلى العربية ـ وخاصة من الإسكندرية، والتى كانت بمثابة نقطة البدء التى انطلق منها الاطباء المسلمون، فقرءوا، وشرحوا، وعلقوا، ثم ابتكروا، وألفوا العديد من المؤلفات الطبية الهامة، والتى ظلت بمثابة دساتير للطب فى أوربا قرون عديدة، ونستطيع أن نتلمس ذلك من خلال الإشارة إلى أبرز أعلام حركة الترجمة فى عصرها الذهبى، إلا وهو حنين بن اسحق، وقد يسأل سائل لماذا حنين بالذات دون غيره من التراجمة الذين ساهموا بنصيب وافر فى حركة نقل وترجمة علوم الأمم الأخرى إلى العالم الإسلامى؟ والجواب هو أن حنيناً بن إسحق يعد من ناحية أكبر وأدق التراجمة الذين شهدتهم النهضة العلمية فى العالم الإسلامى. إبان عصر ازدهارها كما يعتبر من ناحية آخرى من أكبر المترجمين الذين نقلوا كتب الإسكندرانين – وخاصة كتب جالينوس – إلى العالم الإسلامى. الأمر الذى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بموضوع هذا البحث. ويمكن التعرف على شخصية حنين ومجهوداته فى حقل الترجمة لا سيما الكتب الطبية الأسكندرانية، ومدى تأثيرها على الأطباء العرب والمسلمين، وذلك فى الصفحات التالية.

حنين بن اسحق، حلقة وصل بين الإسكندرية وبغداد

هو أبو زيد حنين بن اسحق العبادى [31]. النصرانى، ولد عام 194 هـ. وتوفى عام 260 هـ، وذلك بحسب معظم المصادر التى أرخت له [23]. والتى تكاد تتفق على هذه التواريخ.

وشب حنين ولديه رغبة قوية فى دراسة الطب والصيدلة وذلك سيراً على درب أبيه الذى كان يعمل صيدلانيا [33]. فى الحيرة. فانتسب إلى أكاديمية الطب المشهورة فى جنديسابور آينذاك، وتتلمذ على «يوحنا بن ماسويه» (243 هـ/ 857 م)، لكن سرعان ما ترك استاذه لكراهيته لأهل الحيرة، هؤلاء الذين لا يصلحون لدراسة الطب فى نظره.

فخرج حنين باكياً مكروباً، لكنه لم ييأس، بل أكد على دراسة اللغة اليونانية، حتى حذقها تماماً، وعندما حقق أمنيته، قصد البصرة، فأتقن فيها لغة الضاد، وبذلك استطاع أن يستقى العلوم الطبية من أساطينها الأصليين، وهم : أبقراط 370 ق. م، وجالينوس 201 م وغيرهم كثيرون [34].

وبعد إلمامه باللغات اليونانية والسريانية والعربية، قصد بغداد، وعمل مع جبرائيل بن بختيشوع (ت 204 هـ) طبيب المأمون الخاص، فترجم له من كتب جالينوس كتاب «أصناف الحميات» وكتاب «فى القوى الطبيعية»، فأدرك جبرائيل مالحنين من فطنه وكفاية لغوية،فامتدحه وشهد عند المأمون بأنه «عالماً بلسان العرب، فصيحاً باللسان اليونانى، بالغاً فى اللسانين بلاغة بلغ بها تمييز علل اللسانين» [35]. وهو أيضاً «أعلم أهل زمانه باللغة اليونانية والسريانية والفارسية» [36]. وقد كان لذلك كبير الأثر فى تقديمه للمأمون (الخليفة العباسى السابع) الذى اشتهر بمحبة العلم وتقريب العلماء، بغض النظر عن جنسياتهم أو دياناتهم.

وقد قلده المأمون رئاسة «بيت الحكمة» ذلك المعهد العظيم الذى يعزى اليه وإلى منشئه الفضل فى انطلاقه علمية مذهلة، أثمرت ما أطلق عليه «العصر الذهبى للعلوم الإسلامية».

ولقد جمع «حنين» حوله فريق ممتاز من المترجمين، وفاق نشاطه الخاص كمترجم الخيال [37]. وكان العمل فى بيت الحكمة برئاسته يجرى على قدم وساق، وساد بين المترجمين المشتغلين فيه من نصارى، وسريان، وفرس، وغيرهم «أخلاقيات العلماء من حب وتقدير وتسامح.. ولم تعرف هذه المؤسسة صور التعصب لجنس معين أو دين معين» [38]. فكانت تضم حوالى تسعين شخصاً من المترجمين المدربين تلاميذ حنين، عملوا فى حرية تامة وتحت إشراف إبنه «اسحق»، وإبن اخته حبيش الأعسم». وقد ترجم الأول أعمال بطليموس وإقليدس، وترجم الثانى أعمال إبقراط وديسقوريدس [39].

وقد أشار حنين الذى شكلت جهوده حجر الزاوية فى صرح الترجمة إلى استمرار التقليد المنطقى الطبى على هذا النحو : «فهذه الكتب التى كان يقتصر على قراءتها فى موضع تعليم الطب بالإسكندرية، وكانوا يقرؤنها على هذا الترتيب الذى أجريت ذكرها عليه، وكانوا يجتمعون فى كل يوم على قراءة إمام منها وتفهمه، كما يجتمع أصحابنا اليوم من النصارى (النساطرة) فى مواضع التعليم التى تعرف بالأسكول فى كل يوم على كتاب إمام، إما عن كتب المتقدمين، وإما عن سائر الكتب. وإنما كانوا يقرؤنها الافراد كل على حدته بعد الارتياض بتلك الكتب التى ذكرت، كما يقرأ أصحابنا (النساطرة) اليوم تفاسير كل المتقدمين» [40].

وكانت نتيجة ذلك أن أخرج علماء بيت الحكمة ـ بفضل الحرية الفكرية التى عاشوها ـ نفائس الكتب من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية.

ولست هنا بصدد التأريخ لحركة الترجمة بصفة عامة، بقدر ما أنا معنى بإبراز الدور الذى لعبه زعيم هذه الحركة ورئيس بيت الحكمة حنين بن اسحق، وذلك من خلال التعرف على أعماله وترجماته، تلك التى ساهمت فى

البناء العلمى الإسلامى بصفة عامة.

لقد كان حنين بن اسحق من العلماء غزيرى الانتاج، وليس أدل على ذلك من الثبت الذى يورده إبن أبى أصيبعة لترجماته ومؤلفاته المختلفة. فقد ترجم لجالينوس وحده ما يقرب من اثنين وتسعين مصنفا باللغتين السريانية والعربية. وعن مؤلفاته يذكر ابن أبى أصيبعة له ما يقرب من المائة مؤلف فى فروع المعرفة المختلفة، أكثرها فى الطب، إلى جانب الفلسفة والمنطق والنحو والتاريخ وغير ذلك.

وإلى جانب إتساع مجال نشاط حنين، فان ميزته تكمن فى الطريقة اللغوية التى استعان بها فى تحقيق النصوص الأغريقية التى يمكن الوثوق بها وفى فهمه الممتاز للأصول (41).

وقد كان اشتغال حنين بالترجمة الحافز الأول لاشتغاله بالطب، وهذه حقيقة ينبغى النظر اليها فى الحكم على جهوده، كان الهدف الأساسى لجهود حنين ابن اسحق - فيما يبدو - نقل مؤلفات الأطباء اليونان إلى اللغة العربية، على أن تكون الترجمة عربية واضحة ومفهومه على قدر الإمكان. فقد اعتمد حنين على ترجمة نصوص الكتب، كما اعتمد أيضاً على الشروح المصنفة عليها والملخصات التى أعدت لها. وقد أطلق حنين على نتاج هذه الجهود عدة عناوين، صدرها بكلمة «ثمار» أو كلمتى : «تفسير لكتاب.. » أو جوامع كتاب..» أو «شرح كتاب..» (42).

ومما لاشك فيه أن ترجمات حنين وكتاباته قد أثرت فى الحركة العلمية فى العالم الإسلامى، فكتاباته الطبية كان لها تأثيرها الواضح فى تطور تاريخ الطب العربى الإسلامى، ولاسيما لدى الأفذاذ من أمثال، الرازى، وابن سينا، وابن الجزار، وغيرهم. كما أن كتاباته وترجماته الفلسفية قد أوجدت صداً طبياً لدى الفلاسفة المسلمين من أمثال : الفارابى والكندى، وابن رشد، وغيرهم.

وأورد فيما يلى ثبتاً بأهم ترجمات حنين بن اسحق :

أولاً : ترجم حنين من مؤلفات ابقراط بتفسير جالينوس خمسة عشر كتاباً، منها

1) كتاب عهد ابقراط. يقول عنه حنين «ترجمته إلى السريانية وأضفت إليه شرحاً عملته للمواضع المستعصية منه».

2) كتاب تدبير الأمراض الحادة. يقول عنه حنين «واختصرت معانيه على جهة السؤال والجواب».

3) كتاب «أبيذيميا» الأمراض الوافدة. يقول عنه حنين «أضفت إلى ترجمة ما ترجمته من تفسير جالينوس للمقالة الثانية من كتاب ابيذيميا ترجمة نص كلام بقراط فى تلك المقالة إلى السريانية، وإلى العربية مجرداً على حدته، ثم ترجمت من بعد الثمان مقالات التى فسر فيها جالينوس المقالة السادسة من كتاب ابينديسميا إلى العربية، فلما حصل من تفسير الأربع مقالات من كتاب ابقراط المعروف بابيذيسميا، وهى المقالة الأولى والثانية والثالثة والسادسة لجالينوس تسع عشرة مقالة أختصرت معانيها على جهة السؤال والجواب بالسريانية».

4) كتاب قليطريون (حانوت الطبيب) يقول عنه حنين : «نسخته باليونانية فى كتبى ثم ترجمته من بعد إلى السريانية وعملت له جوامع».

5) كتاب الهواء والماء والمساكن. يقول عنه حنين : «ترجمت نص كلام بقراط وأضفت إليه شرحاً وجيزاً، إلا أنى لم أتمه وترجمت أيضاً النص إلى العربية».

6) كتاب الغذاء. يقول عنه حنين : «ترجمت نص كلام بقراط وأضفت إليه شرحاً وجيزاً»

7) كتاب جالينوس فى كتب أبقراط الصحيحة وغير الصحيحة. قال عنه حنين: «وعملت له جوامع».

8) كتاب : الفصول والكسر ورد الخلع.

9) كتاب : تقدمة المعرفة.

10) كتاب القروح.

11) كتاب الاخلاط.

12) كتاب طبيعة الجنين.

13) كتاب طبيعة الإنسان.

ثانياً : ما ترجمه حنين من كتب جالينوس :

أ) ما نقله من الكتب الستة عشر التى كان يقرأها المتطبون على الولاء[13]. فى الإسكندرية.

1) كتاب الفرق.

2) كتاب الصناعة.

3) كتاب إلى طوثرن فى النبض.

4) كتاب إلى اغلوقن فى التأنى لشفاء الأمراض.

5) كتب المقالات الخمس فى التشريح.

6) كتاب الاسطقسات.

7) كتاب المزاج.

8) كتاب القوى الطبيعية.

9) كتاب العلل والأعراض.

10) كتاب النبض الكبير - نقل منه حنين مقالة واحدة.

11) كتاب الحميات.

12) كتاب البحران.

13) كتاب أيام البحران.

14) كتاب حيلة البرؤ.

ب) الكتب خلا الستة عشر :

1) كتاب حركات الصدر والرئة - وهو اصلاح لترجمة اصطفن بن بسيل الذى اسقط منه ثلاث مقالات.

2) كتاب علل النفس - أصلح لولده ترجمة اصطفن بن بسيل.
3) كتاب الصوت.
4) كتاب حركة العضل - أصلاح لترجمة أصطفن.
5) كتاب الحاجة إلى النفس - ترجم نصفه والنصف الثانى ترجمة أصطفن.
6) كتاب الحركات المجهولة.
7) كتاب منافع الأعضاء - أصلح ترجمة حبيش لإسقاطه سبع عشرة مقالة.
8) كتاب أفضل الهيئات.
9) كتاب سوء المزاج المختلف.
10) كتاب الأدوية المفردة.
11) كتاب المولود لسبعة أشهر.
12) كتاب رداءة النفس.
13) كتاب الذبول.
14) كتاب قوى الأغذية.
15) كتاب التدبير الملطف.
16) كتاب ارسطاطاليس فى مداواة الأمراض.
17) كتاب تدبير بقراط للأمراض الحادة.
18) كتاب إلى ثراسابولوس.
19) كتاب فى أن الطبيب الفاضل فيلسوف.
20) كتاب كتب بقراط الصحيحة.
21) كتاب محنة الطبيب(44).

أما عن خصائص الترجمة عند حنين، فانه كان يراجع دائماً ترجماته السابقة ليقدم ترجمة أكثر دقة. وكان يحترم النص الأصلى من حيث المضمون، وفى كثير من الأحيان كان يلتزم بالشكل أيضاً. وهذا يعنى أنه يتميز بعمق النظرة وصحة الاستدلال، وإصابة الفكرة، فضلاً عن التعبير الأنيق والتنغيم العذب، وكان يوفى الفكرة حقها، ولا يتسرع فى اعتبار هذه الكلمة أو تلك حشواً أو تزيداً. وقد برهن على أن المترجم عليه أن يقاوم ميله إلى

الأختصار مضحياً بجملة هناك وكلمة هنا. ومن حيث أدوات الربط وجدناه فى كثير من الحالات ينقل الصور الخيالية والأقوال الدارجة والكلمات المأثورة ووجوه البلاغة الأخرى من لغة إلى أخرى، وربما كان السبب الحقيقى فى هذا أن لكل لغة رصيدها واختلافاتها، وتباين نظرة الناطقين بها إلى الكون، والأشياء [45].

وبخلاف هذه الترجمات يورد ابن أبى أصيبعة [46]. قائمة بمؤلفات حنين تحتوى على مائة مؤلف فى فروع المعرفة المختلفة تدور فى الأغلب حول الطب، بالإضافة إلى الفلسفة والمنطق والتاريخ والديانات بوجه عام. والواقع أن بعضاً مما نسبه ابن أبى أصيبعة لحنين ليس له. ففى كثير من الاحيان حدث خلط بين مالجالينوس ومالحنين [47].

على أن معظم المصادر الموجودة حالياً تكاد تجمع على نسبة معظم هذه الكتب إليه، وأهمها :

- كتاب المسائل فى الطب للمتعلمين = المدخل إلى الطب [48].
- كتاب تركيب العين وعلاجها على رأى ابقراط وجالينوس. أو العشر مقالات فى العين [49].. وغير ذلك [50].

يتضح مما سبق أن إسهام حنين بن اسحق فى تكوين المصطلح الطبى العربى يعد جهداً قيماً وممتازاً [51]. وقد شكلت جهوده زملاءه وتلاميذه من المترجمين أمثال يوحنا بن ماسوية [52]. واسحق بن حنين [53]. وقسطا بن لوقا البعلبكى [54]. وحبيش الأعسم [55]. وغيرهم، شكلت نهضة علمية مزدهرة، استفاد العرب على إثرها كثيراً من نقل الثقافات الأجنبية اليهم. فقد عملت حركة الترجمة على إذكاء روح البحث والتأمل العقلى بينهم. فنشأت حركة فكرية جديدة متعددة النواحى دعتهم إلى التفكير فى دينهم وفى كل ما يحيط بهم [56].

فلقد كانت حركة الترجمة [57] من أهم وأنشط الحركات الفكرية التى وجدت فى العالم الإسلامى، بل أن القرون من الثانى إلى الرابع الهجرى،

شهدت نشاطاً فى الترجمة لم تشهده الدولة الإسلامية بعد ذلك. وقد عكف الدارسون على فهم الكتب المترجمة وإستيعاب ما بها ودراستها لفترة من الوقت، ثم بدأت مرحلة الإبداع، والتى شارك فيها كثير من علماء العرب ففى الطب ـ موضوع البحث ـ نجد الرازى، والشيخ الرئيس ابن سينا، وابن الجزار، والزهراوى.. وغيرهم.

وأختتم كلامى هنا بحديث موجز عن أشهر الأطباء المسلمين وأقربهم عهداً وتأثراً بتراث مدرسة الإسكندرية الطبى، والذى أنتقل مع التراث اليونانى وغيره إلى بغداد ـ عبر مرحلة الترجمة المشار إليها آنفا ـ على أيام خلافة العباسيين، ألا وهو أبو بكر محمد بن زكريا الرازى. وذلك فى الصفحات التالية.

أبو بكر الرازى [58] (250 - 313 هـ) طبيب المسلمين بغير مدافع

ولد بالرى [59]. وتعلم فى بغداد، ورحل إلى غيرها من البلاد زيادة فى العلم. ثم عاد مرة ثانية إلى بغداد تلبية لدعوة الخليفة المنصور، وذلك بعد أن تعلم الطب والعلاج الإغريقى والإسكندرانى، والفارسى، والهندى، والعربى الحديث.

ولم يطل الزمان بالرازى حتى أصبح طبيباً عظيم الشأن، ذائع الصيت فى طول البلاد وعرضها، وطبقت شهرته الآفاق كحجة فى الطب، ومرجعاً نهائياً لكل الحالات المستعصية، يسعى إليه كل من أراد الصواب من كل حدب وصوب، مرضى كانوا أم طلابا. وها هى قاعات التدريس التى كان يحاضر فيها تزدحم بالأطباء والتلاميذ الذين أتوا من كل أرجاء الامبراطورية الإسلامية لتعلم فنون المعالجة والكشف، والمعاينة السريرية التى لا تعرف الخطأ على يد ذلك الطبيب العظيم.

ويمكن التعرف على مزايا طريقة الرازى فى الدرس الطبى، وما أحدثه فى مجال المعرفة الطبية، والتعليم الطبى، وذلك فيما يلى [60].

1) اتبع الرازى طريقة أكاديمية فى التعليم، يدل على ذلك تقسيمه لطلابه إلى مجموعات متمايزة بحسب تاريخ الالتحاق بالحلقة وما حصله الطالب من الدرس الطبى منذ إلتحاقه. وهذا يكاد يقترب مما هو معمول به الآن فى مراحل التعليم المختلفة، مع الوضع فى الاعتبار للفارق فى الوسائل التعليمية التى كانت متاحة فى زمن الرازى، وما هو متوفر منها الآن.
2) أدرك الرازى أن لكل متعلم مقدرة عقلية ينبغى مراعاتها فيما يلقي إليه من مقدار العلم، فضلاً عن نوعه.
3) تدرج الرازى بالمتعلم من الأسهل إلى الأقل سهولة، فكان يعطيه أولاً أصول العلم، حتى يتهيأ عقله، بعد ذلك لقبول جوامعه.

4) حث المتعلمين على أهمية قراءة كتب السابقين المتخصصة باعتبارها منطلقات ابستمولوجية (معرفية) ينطلقون منها إلى معرفة جديدة على اعتبار أن العمر لا يكفى لمشاهدة كل الواقعات المرضية.
5) فضل الرازى أن يقتصر التلميذ فى التعلم على أستاذ واحد، وذلك لتجنب الوقوع فى خطأ كل واحد منهم.
6) اتخذ الرازى من المتعلم مدرساً له، وذلك من خلال مناقشاته السريرية وأسئلة المتعلمين، واستفساراتهم عن أمور قد لا يكون الرازى قد وقف عليها، فيعود إلى الاطلاع والمشاهدة والتجربة، وهذه الطريقة تشبه إلى حد ما عمل الأطباء - الأساتذة - وخاصة فى مرحلة الدراسات العليا.
7) بث القيم الأخلاقية فى نفوس التلاميذ، بحثهم على أن يكون هدفهم معالجة المريض بصرف النظر عن أخذ الأجر. ومعالجة الفقراء بنفس الاهتمام الذى يعالجون به الأغنياء.
8) الاهتمام بأثر العامل النفسى فى العملية التعليمية.
9) أكد الرازى على أهمية الدروس العملية فى تعلم الطب، وقد تمثل هذا فى تعليم طلابه كيفية مزاولة المرضى، وفى شرحه لهم حول أسرة المرضى فى البيمارستانات. وتعد حالات الرازى السريرية من الإسهامات الأصلية فى مجال المعرفة الطبية. وقد أعتبر بها رائداً لعلم السريريات الحديث. وفى هذا تكمن أهمية الرازى الأساسية. بالإضافة إلى اكتشافاته الطبية والعلاجية الأصلية. فالرازى هو أول من وصف مرض الجدرى والحصبة. وأول من ابتكر خيوط الجراحة المسماة «بالقصاب»، وتنسب إليه عملية خياطة الجروح البطنية بأوتار العود. وهو أيضاً أول من عمل مراهم الزئبق، وأول من عرف الإصابة بالعرق المدينى أو «دودة الفرنديت». وهو أول من وصف عملية استخراج الماء من العيون. واستعمل فى علاج العيون حبات «الاسفيداج»، ونصح الرازى بضرورة بناء المستشفى بعيداً عن أماكن تعفن المواد العضوية.

ولم يتوصل الرازى إلى مثل هذه الاكتشافات وغيرها من فراغ، بل من كثرة إطلاعه على التراث المعرفى للسابقين عليه، وتناوله بالدراسة والتحليل والتمحيص والنقد، فضلاً عن تتلمذه على استاذه على بن الطبرى [62]. وكل ذلك كان بمثابة الأسس التى حددت فكر الرازى فيما بعد. فلم يسلم بآراء ونظريات السابقين عليه، إلا بعد تمحيصيها وإختبارها بالتجربة.

فلقد اهتم الرازى إهتماماً بالغاً بالتجربة باعتبارها معيار الفصل بين الحق والباطل. فما تثبته التجربة فحق ومقبول، وما لم تثبته فباطل ومرفوض حتى وإن كان قائله من فطاحل العلماء. وقد ترك الرازى نصوصاً بليغة كثيرة فى أهمية التجربة منها [63] :

- إن الشكوك المغلطة تقع على الأكثر فى الفن النظرى أكثر منه فى التجربة.
- العلم الذى يطمئن إلى مذهب مقضى عليه بالوقوف والعزلة، لأن إدماج المعلومات فى مذهب يعد بمثابة تحجر علمى.
- عندما تكون الواقعة التى تواجهنا متعارضة والنظرية السائدة، يجب قبول الواقعة ونبذ النظرية، حتى وإن أخذ بها الجميع نظراً لتأييد مشاهير العلماء.

وإذا قال الرازى رأياً، فقيل له، ولكن من قبلك روأوا غير ذلك، فيجيب : هؤلاء رجال ونحن رجال [64].

وكل ذلك! إنما يرجع إلى اهتمام أطباء الملسمين اهتماماً بالغاً بالطب السريرى القائم على المنهج التجريبى فى العلوم الطبيعية، ولاسيما الطبية منها، ويؤكد ذلك الكم الهائل من المؤلفات الطبية الذى وصلنا من تراث الحضارة الإسلامية، حيث يتضح منها أن المنهج التجريبى فى أدق وأجلى خطواته حالياً كان هو أسلوب ومنهج أطباء الحضارة الإسلامية سواء كان ذلك فى ممارسة الطب أو فى تعليمه [65].

ويأتى الرازى فى مقدمة هؤلاء الأطباء الذين استخدموا هذا المنهج، حيث تعد آثاره من الركائز الهامة فى تاريخ هذا العلم، ولعل أهم ما فيها هو، وضع الرازى للمبادئ الأساسية لعلم السريريات البحته، وعدم الوقوف عند المبادئ

النظرية. فلقد بهر التراث اليونانى العلمى والفلسفى الذى نقل إلى اللغة العربية أطباء القرنين الثانى والثالث من الهجرة لدرجة أنهم قد شعروا تحت وطأة هذا التراث بنوع من التبعية الفكرية تجلت فى مؤلفاتهم فيما بعد. وفيما يختص بالطب كانت أقوال كل من أبقراط وجالينوس - ولاسيما نظرية الأخلاط الأربعة - لا تساورها أى شك. وقد تبارى علماء ذلك العصر فى تفسير أسباب الأمراض وأغراضها على أساسها، مستمدين من هذا المذهب ضرباً من الأطمئنان الفكرى، عازفين عن التحقق والتجربة [66].

أما الرازى فقد تحرر فكرياً من تأثير هذه المذاهب والنظريات، فلم يرض بالتسليم بما تتضمنه، إلا بعد إقرار التجربة بذلك. فقد كان اهتمامه الأول منصباً على التجربة العلمية باعتبارها أضمن الطرق وصولاً إلى الحقيقة العلمية. وقد أدرك الرازى أن التجربة علم ذات أصول وفروع، وكان ينصح تلامذته باحكام الأصول وقراءة الفروع، لأنه «من غير هذين لا يصح له شئ ولا يهتدى لأمر من الأمور فى الصناعة [67]. وكان يصف الأطباء الذين يقتصرون على النظر فى الكتب بالجهل، بل ويحذر منهم لأنهم «ينظرون فى الكتب فيستعملون منها العلاجات وليس يعلمون أن الأشياء الموجودة فيها ليست هى أشياء تستعمل بأعيانها، بل هى مثالات جعلت لتحتذى عليها وتعلم الصناعة [68].

ومن هنا كان الرازى يفضل ويؤازر الطبيب الذى يعتمد على التجربة، ويقف بجانبه إذا ما اختلفت فى الرأى مع طبيب القياس، وذلك لأنه يرى أن أغاليط الفن النظرى تفوق أغاليط الفن العملى[69]. فلابد للطبيب من أن يجمع بين رجلين أحدهما فاضل فى الفن العلمى (النظرى) من الطب، والآخر كثير الدربة والتجربة، ويصدر عن اجتماعهما فى أكثر الأمر، فإن اجمعوا جميعا على مخالفة صاحب النظر، قبل منهم[70].

وإذا قبل الرازى أياً من معارف السابقين، فانه لا يدونها كما هى، بل كان يأخذ خلاصة أو نتائج النظريات، ويسجلها بصورة مؤجزة مختصرة، وذلك

لكى تكون بمثابة مقدمات يحاول الوصول منها إلى معرفة جديدة. يقول الرازى عن كيفية تأليفه لكتابه المنصورى :

«وقد جمعت فى كتابى هذا جملاً وعيوناً ونكتاً من صناعة الطب مما استخرجته من كتب بقراط، وجالينوس، وأرماسوس، ومن دونهم من القدماء، وفلاسفة الأطباء، ومن بعدهم من المحدثين فى أحكام الطب والمفاقهة فيه مثل بولس، وأهرون، وحنين بن اسحق، ويحيى بن ماسويه، وغيرهم، وفصلت ذلك على غاية الإيجاز» (71).

وهنا يبدو الرازى وكأنه قد أدرك - فى زمانه - أن المشكلة الرئيسية للابستمولوجيا Epistemology كانت ولا تزال دائماً هى مشكلة نمو المعرفة Growth of Knowledge، وأن نمو المعرفة يمكن أن يدرس على أحسن وجه عن طريق دراسة نمو المعرفة العلمية (72) - Growth of Scientific Knowledge، وفى سبيل ذلك انتقد الرازى، واستبعد ما رآه خطأً من المعارف التى ظن أصحابها أنها صواب. ويعتبر كتاب «الحاوى» خير دليل على أنه كان لا يأخذ بأقوال السابقين أو المحدثين على علتها. وقد أكد على ضرورة تحكيم آذان العقل الذى يحكم ولا يحكم، ويعقل ولا يعقل، ويقود، ولا يقاد. وعليه، فإنه ثار على ما وجده فى الكتب من آراء لا يقبلها العقل، وأخذ بطريقة المتابعة، والملاحظة، والتدوين بصورة دقيقة عند الممارسة، وطبق التجارب على النظريات العلمية، ورفض مالا ينطبق منها على النتائج الصحيحة (73).

كذلك وقف الرازى على ضحد وتفنيد آراء السابقين الخاطئة، ومن كتبه فى ذلك «كتاب الشكوك على جالينوس» فصل فيه الشكوك والتناقضات التى فى كتبه، وذكر فيه أن كثيراً من الناس يستجهلونه فى تأليف هذا الكتاب. وأن كثيراً منهم يلومونه، ويعنفونه على مناقضة رجل مثل جالينوس فى جلالته ومعرفته (74).

ولكن الرازى لم يعبأ بذلك لأن الحق عنده لا يؤخذ بالرجال، بل يؤخذ إذا كان حقاً فى ذاته.

وبالجملة فان الرازى لم يعمل بقاعدة «سلطة الكتابات القديمة»، بل اتخذ من نفسه موقف المتلقى السلبى «الذى يطالع ويحلل ويكتشف مواضع الأخطاء، والغموض، والتناقضات واللاتساق، مما يجعله يصحح، ويضيف، ويبتكر، وينظر لخبرة علمية جديدة قوامها التواصل العلمى المبنى على النقد بغرض إظهار الحقيقة»[75].

هوامش الفصل الرابع

1) راجع، بول غليونجى، ابن النفيس. ضمن سلسلة أعلام العرب 57. الدار المصرية للتأليف والترجمة، بدون تاريخ ص 345.

2) ولد فى مدينة تسمى «خلقدونية» فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، وكان من بين العلماء الذين استقدمهم بطليموس سوتير إلى الإسكندرية فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد.

3) د. عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه، دار المعارف، ط الثامنة، القاهرة بدون تاريخ، ص 33.

4) راجع، جورج سارتون، تاريخ العلم، ترجمة لفيف من العماء باشراف د. إبراهيم بيومى مدكور، دار المعارف، ط الثانية 1979، جـ 4، ص 239 - 240.

5) راجع : Ghalioungui, P. Magic and Medical Science in Ancient Egypt, London, 1963, P. 47.

6) ولد فى بوليس أحدى مدن بلاد اليونان، وهناك اختلاف حول السنة التى ولد فيها. فقال سارتون سنة 204، وقال غليونجى سنة 310، وتوفى سنة 250 ق. م، وأنا أرجح التاريخ الثانى لأن ارازيستراتوس كان معاصراً لهيروفيلوس، ويقال أنه عمل مساعداً له، وتلقى تعليمه فى أثينا على يد مترودوروس صهر أرسطو، وغيره، ثم انتقل إلى الإسكندرية حيث برز فى الطب، ولا سيما التشريح.

7) چورچ سارتون، المرجع السابق، ص 249.

8) Ghalioungui, P... Review, P. 49. ويقول الدكتور بول غليونجى فى كتابه «ابن النفيس»، والذى أقر فيه باكتشاف الأخير للدورة الدموية، يقول فى ص 36 : وقد كاد ارازيستراتوس أن يكشف عن الدورة الدوية كما نراها الآن، عندما قال: أن الدم يتطرق من الشرايين إلى الأوردة عن طريق أوعية موصلة دقيقة للغاية.

9) المرجع السابق، نفس الصفحة.

10) چورچ سارتون، م. س، ص 241 - 242.

11) بول غليونجى، المرجع السابق، ص 37 - 38.

12) ذكر كثير من مترجمى جالينوس أنه كان معاصراً للسيد المسيح، منهم محمد البيهقى مؤرخ فارس (1896 - 1977 م) الذى ذهب فى كتابه «مسارب التجارب وغوارب الضرائب» إلى أن جالينوس آمن بعيسى وأرسل اليه ـ لعجزه وكبر سنه ـ ابن اخته «بولص» يبايعه على الإيمان به.. راجع تفاصيل الخلاف حول مولد جالينوس ووفاته فى عيون الأنباء لابن أبى جالينوس ص 110 - 117، وأخبار العلماء للقفطى ص 86 - 90، وتواريخ الحكماء للشهر زورى ص 461 (الذى ذكر أن

جالينوس كان بعد وفاة المسيح بنحو مائتى سنة) . والفهرست لابن النديم ص 402 الذى ذكر أن جالينوس بعد المسيح بسبع وخمسين سنة.. الخ.

13) يقول جالينوس فى كتابه «محنة الطبيب» إنى لما ابتدأت بعلم الطب رفضت اللذات واستخففت بما فيها من عرض الدنيا.. واشغلت نفسى دهرى كله بأعمال الطب والفكر فيه.. وسهرت عامة ليلى فى تقليب الكنوز التى خلفها القدماء لنا» (ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، منشورات دار الحياة بيرون بدون تاريخ ص 121).

14) ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، طبعة المعهد العلمى الفرنسى للاثار الشرقية، القاهرة 1955، ص 41.

15) والرؤساء الثمانية هم على الترتيب : 1) أسقليبيوس، 2) غورس، 3) منيس، 4) برمانيدس، 5) افلاطون، 6) اسقليبيوس، 7) ابقراط، 8) جالينوس. راجع الشهرزورى : تواريخ الحكماء، تحقيق مركز التراث القومى والمخطوطات بجامعة الإسكندرية باشراف ومراجعة أ. د/ محمد على أبوريان، دار المعرفة الجامعية ط أولى 1995، ص 481.

16) راجع التيجانى الماحى : مقدمة فى تاريخ الطب العربى، مطبعة مصر بالخرطوم 1959، ص 28.

17) بعد إهمال الآراء التى لا تتفق مع عقائدهم مثل قول جالينوس أن للكون روحاً.

18) راجع، بول غليونجى، م. س، ص 39.

19) ابن النديم الفهرست، طبعة القاهرة 1348 هـ، ص 403 - 404.

20) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء، م. س، ص 151.

21) نفس المرجع 154، والكتب الستة عشر هى : 1- كتاب الفرق. 2- كتاب الصناعة الصغير. 3- كتاب النبض الصغير، 4- كتاب اغلوقن. 5- كتاب الاسطقسات، 6- كتاب المزاج، 7- كتاب القوى الطبيعية، 8- كتاب التشريح الصغير، 9- كتاب العلل، 10- كتاب تعرف علل الأعضاء الباطنة، 11- كتاب النبض الكبير، 12- كتاب الحميات، 13- كتاب البحران، 14- كتاب أيام البحران، 15- كتاب حيلة البر، 16- كتاب تدبير الأصحاء. انظر، ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء، ص 154 - 157، وابن النديم الفهرست ص 403، ويذكر الدكتور ماهر عبد القادر فى كتابه «دراسات وشخصيات فى تاريخ الطب العربى»، ص 171 أن ابن النديم قد أثبت هذه الكتب فى الفهرست بدون ترتيب، أما ترتيبها بهذا الشكل فقد استحدثه ابن أبى أصيبعة نقلاً عن حنين بن اسحق، وأبو الحسن على بن رضوان اللذان نقلا ترتيبهم عن يحيى النحوى.

22) د. نجيب بلدى، م. س، ص 48.

23) جورج سارتون، تاريخ العلم، م. س، ص 250.
24) بول غليونجي، م. س، ص 40.
25) نفس المرجع، نفس الصفحة.
26) راجع القفطي، اخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة القديمة 1326 هـ، ص 57، 61
27) د. عامر ياسين النجار، حركة الترجمة وأهم أعلامها في العصر العباسي، دار المنار القاهرة 1993، ص 19 وبعدها.
28) د. ماهر عبد القادر محمد، دراسات شخصيات في تاريخ الطب العربي، دار المعرفة الجامعية 1991، ص 35.
29) خالد حربي، أبو بكر الرازي، ومكانته العلمية في الطب خاصة، مع تحقيق نص كتاب جراب المجربات وخزانة الأطباء، رسالة ماجستير كلية الآداب - جامعة الإسكندرية 1998، ص 28.
30) ماكس مايرهوف، من الإسكندرية إلى بغداد، بحث ضمن : التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، دراسات لكبار المستشرقين، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت بدون تاريخ ،ص 65.
31) Holt (P. M), Ann (K.S.L) and Lewis (Bernard) : The Cambridge History of Islamic Society and Civilization, Vol 28, Cambridge University, Press 1970, P 768.
32) العباد : قوم من قبائل نصرانية شتى اجتمعوا وانفردوا عن الناس في قصور ابتنوها بالحيرة، وتدينوا بالنصرانية، وسموا أنفسهم «عبيد الله»، ثم رجعوا عن هذه التسمية لمشاركة المخلوق فيها للخالق، فيقال عبيد الله، وعبيد فلان، وسموا أنفسهم بأسم «العباد» لاختصاص الله به فيقال عباد الله، ولا يقال عباد فلان.
33) أنظر : ابن النديم، الفهرست ص 409، القفطي، أخبار العلماء ص 119، ابن جلجل طبقات الأطباء ص 68. الشهرزوري، نزهة الأرواح ص 491، وابن أبي أصيبعة عيون الأنباء ص 257.
34) خير الدين الزركلي، قاموس تراجم الرجال والنساء، جـ 2، ص 325.
35) حنين بن اسحق، المسائل في الطب، تحقيق د. محمد على أبور ريان وآخرين، دار الجامعات المصرية 1968، ص 8، 9.
36) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص 68.
37) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 259.
38) The Cambridge History of islamic Civilization. Vol, 2, P 768.

39) د. ماهر عبد القادر : دراسات وشخصيات فى تاريخ الطب العربى، ص 103 .

40) Stephen F. Mason, Ahistory of the Sciences, First Collier Books edition, New York, 1965, P 70.

وقد أعيد طبع هذا الكتاب خمس مرات، وكانت الطبعة الخامسة عام 1968 .

41) G. Bergstrasser "Hunain ibn Ishaq uber die syriscen and Arabishen, Galin - uber Setzungen" Abhand lungen fur die Kunde des Morgenlandes, 1952.

ج. بيرجشترسر ،حنين بن اسحق والترجمات السريانية والعربية لجالينوس، بحوث للتعرف على الشرق. عن نيقولا ريشر : تطور المنطق العربى ترجمة محمد مهران، دار المعارف 1985، ص 138 - 139.

42) شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ترجمة حسين مؤنس، إحسان صدق العمد، عالم المعرفة، الكويت، 1968، ص 89.

43) حنين بن اسحق، المسائل فى الطب، م. س، ص 479.

44) ابن النديم، الفهرست، ص 403.

45) هذا بخلاف ترجمته للكتب غير الطبية مثل :

- كتاب تعريف المرء عيوب نفسه.
- كتاب ما ذكره افلاطون فى طيماوس.
- كتاب المحرك الأول لا يتحرك.
- كتاب تفسير الثانى من كتب ارسطاليس.

46) د. ماهر عبد القادر : حنين بن اسحق والعصر الذهبى للترجمة، دار النهضة العربية بيروت 1987, w 140 - 141.

47) عيون الأنباء، ص 275 وبعدها.

48) حنين بن اسحق : المسائل فى الطب ص 22، وانظر الهامش الآتى :

49) نشر الكتاب محققاً بمعرفة الدكاترة : محد على أبو ريان وجلال موسى، ومرسى عرب، دار الجامعات المصرية ـ الاسكندرية 1978 .

50) نشر ماكس مايرهوف النص العربى لهذا الكتاب مع ترجمة إنجليزية، القاهرة 1928.

Max Meyerhof, the book of the ten treatises on the Eye ascribed to Hunain B.Ishaq, Cairo 1928.

51) لمراجعة بقية مؤلفات حنين، انظر كتاب المسائل فى الطب لحنين، النسخة المحققة ص 481 - 504.

52) حنين ابن اسحق، المسائل، ص 480.

53) هو أبو زكريا يوحنا (أو يحيى) بن ماسويه من أطباء مدرسة جنديسابور، هاجر إلى بغداد فى أول القرن الثالث الهجرى، وهناك أقام بيمارستاناً، وجعله الخليفة «المأمون» فى سنة 215 هـ = 830م رئيساً لبيت الحكمة، وتوفى سنة 243 هـ = 857 م. وكان حنين بن أسحق من تلاميذه، وقد اشتهر بجانب علمه بالطب بترجمة الكتب الطبية القديمة إلى العربية (انظر ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء تحقيق فؤاد سيد، ص 65).

54) هو يعقوب اسحق بن حنين بن اسحق العبادى، كان يلحق بأبيه فى النقل وفى علاقته باللغات وفصاحته فيها. وقد خدم من خدم أبوه من الخلفاء والرؤساء، وكان منقطعاً إلى القاسم بن عبيد الله (وزير المعتضد) ومتقدماً عنده يفضى إليه بأسراره. توفى ببغداد سنة 298 هـ (انظر الشهرزورى)، وتواريخ الحكماء، النسخة المحققة ص 492).

55) أحد مشاهير الأطباء ونقله العلوم فى الإسلام كان معاصراً للكندى المتوفى 255 هـ، وثابت بن قرة المتوفى سنة 288 هـ ولم تذكر كتب التراجم تاريخ ميلاده أو وفاته (انظر طبقات الأطباء ص 67).

56) ابن أخت حنين بن اسحق وتلميذه. ويرى بعض المؤرخين أن مكانته فى الطب والترجمة تضاهى مكانة ومنزلة حنين.

57) محمد على أبوريان : تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام، م. س، ص 111.

58) ماهر عبد القادر : دراسات وشخصيات فى تاريخ الطب العربى، م. س، ص 51، 55.

59) لم يتفق إثنان من المؤرخين على تاريخ مولد الرازى، وكذلك تاريخ وفاته، فقد قال القاضى صاعد بن الحسن الأندلسى أنه توفى عام 320 هـ، وذكر ابن خلكان أنه توفى عام 311 هـ، وقال ابن شيرازا أن وفاته كانت عام 364 هـ. (محمد كامل حسين، محمد عبد الحليم العقبى، طب الرازى «دراسة تحليلية لكتاب الحاوى، دار الشروق، القاهرة 1977، ص 17.

والأرجح أنه ولد عام 250 هـ = 864 م. وتوفى ببغداد فى الخامس من شعبان عام 313 هـ = 25 أكتوبر عام 995م. وذلك استناداً إلى المقال الذى نشره روسكا Ruska عن الرازى عنوانه : «البيرونى كمصدر لحياة الرازى وكتبه».

60) إحدى مدن إيران القديمة. قال عنها الأصمعى : «الرى عروس الدنيا ومتجر الناس، وهو أحد بلدان الأرض». والنسبة اليها رازى، وقد خرجت كثيراً من العلماء المعروفين بهذه التسمية، أشهرهم أبو بكر الرازى الطبيب. (أحمد أمين، ظهر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ط الثالثة 1962، جـ 1، ص 219. وأيضاً :

William Benton, Encyclopedia Britannica, Publisher Printed the U.S.A, 1964 Vol. 19, P, 2.

وتقول زيجريد هونكه : وكانت هذه المنطقة آينذاك عبارة عن مقاطعة جبلية يقطنها أناس فارعوا الطول، شقر الشعر، أطلق عليهم العرب «الثعالب الحمراء». وكان الرازى أحد هذه الثعالب التى تشب فى صباها على الاهتمام بالدراسات الفلسفية واللغوية والرياضيات. (شمس العرب تستطع على الغرب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط الثامنة 1986، ص 244).

61) خالد حربى، المرجع السابق، ص 45- 46.

62) هو أبو الحسن على بن رين الطبرى الطبيب، قال عنه القفطى : فاضل فى صناعة الطب، وقد كان بطبرستان فى خدمة ولاتها ويقرأ علم الحكمة، وانفرد بالطبيعيات، وجرى بطبرستان فتنة أخرجه أهلها على اثرها إلى الرى، فقرأ عليه محمد بن زكريا الرازى واستفاد منه علماً كثيراً، ثم رحل إلى سرمن رأى، فاقام بها وصنف كتابه المسمى بفردوس الحكمة، وهو كتاب مختصر التصنيف لطيف التأليف، وهو سبعة أنواع يحتوى على ثلاثين مقالة، والمقالات تحتوى على ثلثمائة وستين كتاباً، وله كتاب تحفة الملوك. كتاب كناش الخضرة. كتاب منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير. (أنظر القفطى، الأخبار، ص 155 ، وابن أبى أصيبعة، العيون، ص 414).

63) الرازى، كتاب القولنج، تحقيق صبحى محمود حمامى، منشورات جامعة حلب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد المخطوطات العربية، الطبعة الأولى 1983، ص 9.

64) خالد ناجى، الرازى استاذ الطب السريرى، بحث ضمن : أبو بكرالرازى وأثره فى الطب «كتاب تذكارى» مركز إحياء التراث العلمى العربى، جامعة بغداد 1988، ص 41.

65) راجع. أحمد فؤاد باشا، علوم الطب فى تراث المسلمين، مجلة الأزهر ج 11، عدد إبريل 1995، ص 1532.

66) الرازى، كتاب القولنج، م. س، ص 8.

67) الرازى، رسالة إلى أحد تلامذته، مخطوط بدار الكتب المصرية، ضمن مجموعة تحت رقم 119 طب تيمور، ورقة 117 وجه.

98) نفس المصدر، نفس الصفحة.

69) جلال محمد عبد الحميد موسى، منهج البحث العلمى عند العرب فى مجال العلوم الطبيعية والكونية، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ط الأولى 1972، ص 187.

70) الرازى، محنة الطبيب، نقلا عن المرجع السابق، نفس الصفحة.

71) الرازى، المنصورى فى الطب، تحقيق حازم البكرى الصديقى، معهد المخطوطات العربية، الكويت 1987، ص 18.

72) كارل بوبر، منطق الكشف العلمى، ترجمة د. ماهر عبد القادر، دار النهضة العربية بيروت بدون تاريخ ص 52.

73) داود سلمان على التعريف بكتاب الحاوى الكبير للرازى، بحث ضمن : أبو بكر الرازى وأثره فى الطب، م. س، ص 82.

74) حسين على محفوظ، تراث الرازى إحصاء وتلخيص بحث ضمن المرجع السابق، ص 172.

75) د. ماهر عبد القادر محمد، الحسن بن الهيثم وتأسيس فلسفة العلم، دار المعرفة الجامعية 1997، ص 31.

الفصل الخامس

تراث الإسكندرية المخطوط

ومشروع إحياء المكتبة القديمة

لقد تبين لنا عند الحديث عن نشأة الإسكندرية ومكتبتها كيف أن هذه المدينة العريقة قد أهتمت اهتماماً بالغاً بالكتب، وبذل القائمون على أمرها كل ما فى وسعهم للحصول عليها من أرجاء العالم المتحضر آينذاك، حتى صارت الإسكندرية (بالكتب) قبلة العلم والعلماء يسعى إليها كل من أراد الصواب طلاباً كانوا أم علماء.

ولقد استمر الحال هكذا إلى أن جاء العصر المسيحى، لتقدم الإسكندرية آباء الكنيسة (كليمنت Clement، وأوريجين Origen)، ويقدم عوام المسيحيين صفحة دامية فى صراعهم مع الوثنية.. حين يشتد تعصب بعض الاساقفة فيرى فى مكتبة الإسكندرية معقلاً للثقافة الوثنية، ويأمر أتباعه بتخريبها. فخرّبوها فى أيام عصيبة.. وانتهى التخريب فى اليوم الذى سحب فيه عوام المسيحيين العالمة الرياضية الشهيرة الجميلة هيباثيا إبنة الرياضى الفيثاغورى العظيم ثيون، فمزقوها بعد رجمها فى معبد القياصرة، وأضرموا النار فى بقايا المكتبة.. وهكذا انتهت مرحلة رائعة من تاريخ العلم والثقافة فى الإسكندرية[1].

وحين دخل المسلمون الإسكندرية سنة 642 م، لم يكن بها شيئ يعتد به من الكتب ـ والعجيب أن بعض الباحثين يدعى أن المسلمين هم الذين أحرقوا المكتبة [2]. وما أن استقر الإسلام فى مصر، حتى بدأت الإسكندرية تعود لازدهارها الثقافى والعلمى، لتصبح فى أواخر أيام الفاطميين مركزاً من مراكز العلم، يحفل بجماعة من محدثى وفقهاء السنة، الذين كان لهم أكبر الأثر فى إسقاط الدولة الشيعية وإقامة دولة سنّية بزعامة صلاح الدين الأيوبى، وتخبرنا المصادر التاريخية أن الناصر صلاح الدين كان يأتى للإسكندرية خصيصاً كى يسمع الحديث الشريف من المحدث (أبى طاهر السِّلَفى المتوفى 576 هـ) [3].

وفى العصر المملوكى صارت للإسكندرية مكانتها العلمية، وظلت المخطوطات تتراكم فى مكتاباتها العلمية عاماً بعد عام، حتى أطل العصر

الحديث، وجاءت الجيوش الفرنسية والإنجليزية لتدك بنايات الإسكندرية بمدافعها، وتفتح عصر استعمار البلاد العربية، وهو العصر الذى نهبت فيه كنوز التراث والمخطوطات، لتستقر فى مكتبات العواصم الأوربية (4).

ولقد لعبت المخطوطات العربية والإسلامية دوراً بارزاً فى التقدم الغربى المعاصر ذلك التقدم الذى بدأت مقدماته الأولية الطويلة بموجات الاستشراق الغربية، تلك التى يؤرخ لبدايتها عادة برحلة «جربيردى أورياك» الفرنسى سنة 967 م إلى قرطبة طلباً للعلم والحكمة على أيام الحكم الثانى. والمقصود بهذه الحركة هو دراسة الغرب لأمم الشرق بلغاتها ودينها وعلومها وعاداتها ومعتقداتها، وبصفة عامة بتاريخها الثقافى بأوسع معنى لكلمة الثقافة.

ولقد انطلق المستشرقون بداية من دراسة القرآن واللغة العربية لخدمة فكرة التبشير إحدى الدوافع الحقيقية من الاستشراق. فالمتتبع للحركات الفكرية فى البلاد العربية والإسلامية منذ أواخر القرن الماضى، يدرك تماماً أن معظمها قد تمثل فى حملات التغريب التى شنها الغرب، والتى كانت تدعو إلى التبشير فى كثير من البلدان مثل : أندونيسيا، والهند، وسوريا، ومصر، والسودان، والمغرب العربى.. وغيرها. كما ظهرت فى كم هائل من كتابات المستشرقين، لاسيما «سنوك هيرجرونجه» و «مرجليوث» و «زوير» و «هويار» و «لوى برتران».. وغيرهم.

وبناء على ذلك جاء قرار المجمع الكنسى الأوربى بإدخال تعليم اللغة العربية فى جامعات خمس هى : باريس الفرنسية، واكسفورد الإنجليزية، وبولونيا الإيطالية، وسلمنكا الأسبانية، وجامعة كوريا. وقد خرّجت مدرسة مطران بطليطلة رهط من المستعربين الذين أتقنوا اللغة العربية، ومنهم : جيرار الكريمونى، ويوحنا الأسبانى، وهرمان الألمانى.. هؤلاء الذين قاموا مع غيرهم بنقل وترجمة أهم إبداعات العقلية التاريخية العربية إلى اللغات القشتالية والعبرية واللاتينية. فنقلت العلوم العربية فى الرياضيات، والفلك، والطب، والفلسفة، والأدب، والشعر، والتصوف، والهندسة و.. و.. وكان

لليهود الأسبان فى طليطلة دوراً بارزاً فى ترجمة هذه العلوم والمعارف.

ولقد استمرت حركة الترجمة هذه حوالى قرنين من الزمان بصورة فائقة إلى الدرجة التى يمكن القول معها إنها قد ضاهت فى شدتها وقوتها ودقتها حركة الترجمة العربيةِ فى عصرها الذهبى إبان الخلافة العباسية الغابرة.

وكانت الكنوز العربية المنقولة بمثابة الركائز التى قامت عليها الجامعات الأوربية فى القرن الثالث عشر الميلادى. فقامت جامعة اكسفورد كأول جامعة فى انجلترا متخذة من موسوعة «المناظر» للحسن بن الهيثم النموذج الأمثل للعلم التجريبى، ذلك النمط السائد فى الفلسفة الإنجليزية برمتها حتى اليوم. وتأثرت أوربا تأثراً بالغاً باعمال الفلاسفة المسلمين، لاسيما الفارابى، وابن سينا، والغزالى ، وابن رشد، والمتلكمين، وخاصة الفحر الرازى. فمعظم فلسفة القديس توما الاكوينى مثلاً عبارة عن مزيج من فلسفات ابن سينا، والغزالى، وابن رشد بدون أن يذكر مصادرهم التى استقى منها، وبذلك يكون قد خرج عن نهج استاذة ألبرت الكبير الذى كان أميناً فى اشاراته إلى مصادرة العربية. وكفى أن نعرف أن الشاعر الإيطالى المشهور دانتى قد أخذ «كوميديته الإلهية» من كتاب الشيخ الأكبر محى الدين بن عربى «المعراج».

كما استفادت أوربا من أعمال الخوارزمى، والبيرونى، وغيرهما فى الرياضيات، والحساب، والفلك، فعرفوا اللوغاريتمات، والصفر، والحساب العشرى، والزيجات الفلكية. وكانت كتب الرازى الطبيب، وابن سينا، والزهرواى، وغيرهم من الأطباء بمثابة الأسس التى أدت إلى التقدم الطبى المزهل فى الحضارة الغربية المعاشة. وليس أدل على ذلك من أن جامعة «برنستون» الأمريكية تخصص أكبر ناحية فى أجمل أبنيتها لمآثر الرازى الطبيب كعلم من أعلام الحضارة الخالدين.

وجملة القول إن الغرب الأوربى قد استطاع - بكل ما وفره من إمكانيات لحركة الاستشراق بدءاً من القرن العاشر الميلادى - أن ينقل إليه النموذج الحضارى الشرقى بعد أن كان ملقى بنفسه فى غيابات جب الجهل والظلام.

أقتنص الأوربيون الكنز الشرقى، وألبسوه ثوباً أوربياً حديثاً على مدار عدة قرون، ثم صدوره ثانية، إلى بلاد الشرق فى ثوبه التكنولوجى المتطور، فعاش الشرق ما عرف إصطلاحاً «بالتغريب»، ثم «الحداثة»، ثم «ما بعد الحداثة»، ثم بدأ يدخل طور العولمة المتزامن.

ومع التسليم التاريخى التام بقيام الحضارة الغربية الحديثة على أسس الحضارة العربية الإسلامية فى العصور الوسطى، فإن تراثنا المخطوط مازال يحوى كنوزاً لم يعرفها علماء الغرب القدامى. الأمر الذى يفسر إهتمامهم الحالى بالتراث العربى والإسلامى المخطوط، وذلك أملاً فى مزيد من العلم وحل مشكلاته. واستطيع أن أشير هنا إلى أحدث مشكلة منطقية غربية مازالت قيد البحث، وتؤرق مناطقة الغرب. وقد خفى عليهم أن حلها موجود فى تراث المسلمين المخطوط !

والمشكلة تتعلق بمنطق «الموجهات» أو «الجهات» أحدث أنواع المنطقى الذى لم يتم التوصل إلى نسق نهائى له حتى الآن. ماذا يفعل مناطقة الغرب لو علموا أن مكتبات مصر تحوى أكثر من عشر مخطوطات نادرة لهذا النوع من المنطق الجديد ؟! ألم يعلموا أن المسلمين قد بحثوا فى هذا المنطق من خلال القياس الاصولى القائم على قانونى العلية أو التعليل، والاطراد فى وقوع الحوادث، وأنهم وضعوا طرقاً لإثبات العلة من حيث أنها الصفات التى يستند عليها الحكم. وهذه الطرق هى :

1) ضرورة تأثير العلة فى الحكم.
2) أن تكون العلة غير مضطربة، أى واضحة لايردها نص أو إجماع، أو تعترضها علل أقوى منها، وألا تستوجب حكماً للأصل، وأخر للفرع.
3) ضرورة ظهور المعلول إذا ظهرت العلة.
4) ضرورة إختفاء المعلول إذا اختفت العلة.

وهذه الطرق قد أخذها المنطقى الإنجليزى «**چون ستيورات مل**»، وسماها وسائل إستقرائية لتحقيق الفرض العلمى. ولو كان «مل» وغيره قد أمعنوا النظر

فى الشروط التى وضعها المسلمون للعلة، لكانوا قد فطنوا إلى أن معضلة منطق «الموجهات» الحديث تكمن فى الشرطيين القائلين بدوران العلة مع المعلول وجوداً وعدماً (3 – 4).

ومع أهمية وخطورة الأنساق المنطقية الحديثة فى صناعة التكنلولوچيا، تأتى أهمية وضع نسق جديد لمنطق «الموجهات» المنتظر. ونأمل أن يكون ذلك على أيدى المناطقة العرب، لاسيما وأننا لدينا أساسيات هذا النسق، ولدينا لغتنا الجميلة التى تسرى فى وجداننا، وننفعل بها، الأمر الذى يساعد على فهم وفك رموز مخطوطات تراثنا المجيد، ذلك الذى يبدو كوجه متجهم يعلوه غبار السنين، وهو فى الحقيقة يحوى كنوزاً وذخائراً نستطيع أن نواجه بها العلم الغربى، بدلاً من أن نظل مستهلكين له. وبدلاً من أن يضع بعض علماء الغرب أيديهم على هذه الكنوز وتلك الذخائر، ثم ينسبون الفضل لانفسهم، ولنا فى جاليليو وسرفيتوس، وقسطنطين الإفريقى «اللص الوقح».. وغيرهم أسوة حسنة، مع الاعتذار للحسن بن الهيثم، وابن النفيس، وابن الجزار.

يتضح مما سبق أهمية المخطوطات العربية الإسلامية وخاصة التى ترجع إلى النهضة العلمية المزدهرة التى شهدها العالم الإسلامى إبان الخلافة العباسية الغابرة، وما تلاها من قرون.

وفى اعتقادى أن أهمية الحفاظ على، وتحقيق النصوص المخطوطة (الهامة) ترجع إلى عاملين اثنين،

أولهما : هو محاولة الكشف عن كنز دفين لعلم من أعلام الحضارة الإسلامية فى أحد كتبه المخطوطة التى عفى عليها الزمن، ولم يتطرق أحد إلى دراستها وتحقيقها. وقد يحدث أن تقع هذه المخطوطة فى أيدى أحد الغربين، فيكشف ما بها من كشوف علمية، ثم ينسبها لنفسه، وهذا بالضبط ما حدث مثلاً مع سرفيتوس الأسبانى الذى «سَرَقَ» كشف ابن النفيس للدورة الدموية الصغرى، ولم يعرف العالم ذلك إلا فى بداية القرن العشرين عندما بُعث الطبيب المصرى محيى الدين التطاوى إلى إلمانيا لدراسة الطب.

وبينما كان «التطاوى» يقلب فى المخطوطات الموجودة فى مكتبة الدولة، عثر بالصدفة على مخطوط عنوانه (شرح تشريح القانون) والذى تبين «التطاوى» من دراسته ان ابن النفيس قد اكتشف الدورة الدموية الصغرى. وما أن أطلع «التطاوى» استاذه الألمانى على كشف ابن النفيس هذا، حتى أرسل إلى العلامة «ماكس مايرهوف» الذى كان موجوداً بالقاهرة وقتئذ بالأمر، فأرسل الأخير إلى «جورج سارتون» الذى كان قد أعد موسوعته عن «تاريخ العلم»، فضمن الملاحق ملاحظة بذلك. وفى عام 1942 تقدم «التطاوى» برسالة عن «الدورة الدموية تبعاً للقرشى، أى ابن النفيس، ليحصل بها على درجة الدكتوراة من ألمانيا. ولقد انتقل خبر اكتشاف «التطاوى» بين المستشرقين فى العالم، فزاد التنقيب فى التراث العربى بصورة كبيرة فى بداية هذا القرن على أيدى كثير من المستشرقين منهم : ماكس مايرهوف، وشاخت، وبوزورت، وغيرهم ممن اهتموا بدراسة ابن النفيس اهتماماً بالغاً. كما بذلت محاولات من جانب الباحثين والمفكرين العرب لدراسة ابن النفيس فى غاية الأهمية، وتلقى أضواء كاشفة على كثير من جوانبه العلمية والفكرية، وتدفع إلى دراسات أكثر تطوراً تحاول ربط كل هذا الجهد بصورة أدق لإخراج نتائج العمل العلمى الذى عبر ابن النفيس عن سياقه [5].

ومن أهم هذه الدراسات، دراسة الدكتور ماهر عبد القادر [6]. التى ناقش فيها موقف الغرب من إشكالية التشريخ عند ابن النفيس من خلال إعمال منهج النقد الداخلى للنصوص العربية، ونصوص المستشرقين.

وما سبق مثال واحد (لسرقات) علمية كثيرة حدثت من قبل الغربيين وهم بصدد التعامل مع المخطوطات العربية والإسلامية.. ولكن ـ لحسن الحظ ـ أن ما عرفه العالم من كنوز علمية عربية وإسلاميه (بطرق مشروعة وغير مشروعة) قد تم من الإطلاع على كمية ضئيلة من المخطوطات، إذ أن ما تم دراسته وتحقيقه حتى الآن لا يتجاوز نسبة الخمسة فى المائة من حوالى ثلاثة مليون (3000000) مخطوط محفوظة فى ألفين (2000) مكتبة تقريباً.

والجدير بالذكر أن الغرب الأوربى قد عاود التفتيش فى المخطوطات العربية والإسلامية أملاً فى مزيدٍ من العلم، وبعد أن رأى أن ورثة هذه المخطوطات قد اكتفوا بتخزينها، وبتخصيص الميزانيات الضخمة لفهرستها من آن إلى آخر، دون تحقيقها ونشرها، اللهم إلا بعض المجهودات الفردية المتفرقة والتى تقتضى بعضها «المصلحة» فى معظم الأحيان، كأن يحصل المحقق بتحقيقه لإحدى المخطوطات على درجة الماجستير أو الدكتوراة.

وفى الوقت الذى يكتفى فيه العالم العربى بفهرسة و (عدْ) مالديه من تراث مخطوط، فإن الغرب الأوربى قد أعد العدة لدراسة وتحقيق ما يستطيع الحصول عليه من مخطوطات عربية وإسلامية، فخصص الباحثين والمستشرقين، واعتمد الميزانيات، وأنشأ المعاهد والمراكز الأكاديمية الخاصة بهذا الغرض مثل معهد سيميزونيان Simithonian Institute بواشنطن، ومعهد ولكم Wellcome Institue بلندن، إلى جانب مراكز باريس، وهولندا، وأسبانيا.. وغير ذلك.

وذلك إنما يؤكد ما سبق أن ذكرته من أهمية ما تبقى لدّى العرب والمسلمين من مخطوطات فى حاجة لمن ينفض عنها - من العرب والمسملين - غبار السنين، وذلك بالعمل على تحقيق ونشر الهام منها، والتى تصلح فى عصرنا هذا، وخاصة المخطوطات العلمية (الطبية – الطبيعية – الكيميائية – الرياضية) إلى جانب طبعاً المخطوطات الدينية التى تخاطب الروح فى كل زمان ومكان. وأعمال التحقيق والنشر، إما أن تكشف عن جديد (مدفون) من العلم، وإما أن تكون ذا أهمية فى حركة تاريخ العلم العالمية، موضوع إهتمام العالم المتقدم.

وإذا رجعنا إلى مدينتنا «الإسكندرية» وحاولنا الوقوف على ما تقتنيه من مخطوطات، فإننا سوف نفاجئ بعدد ضخم من المخطوطات التى تنتمى إلى عصور مختلفة، موزعة فى عدد من المكتبات خاصة مكتبة جامعة الإسكندرية المركزية، ومكتبة بلدية الإسكندرية، ومكتبة أبى العباس المرسى، ومكتبة

المعهد الديني بسموحة. والجدير بالذكر أن الدكتور يوسف زيدان قد تصدى منذ فترة لفهرسة هذه المخطوطات بالتعاون مع الجهات المعنية، لاسيما معهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة، والهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية. وليس أدل على ضخامة عدد المخطوطات بالإسكندرية من أن فهرس مخطوطات المكتبة المركزية بجامعة الإسكندرية قد صدر في مجلدين، وصدر حتى الآن من فهرس مكتبة أبي العباس المرسي مجلدان، وكذا مكتبة بلدية الإسكندرية، ويعد الدكتور يوسف زيدان بأن فهرس هذه المكتبة سيقع كاملاً - بإذن الله - في اثني عشر جزءاً مع كشافات وافية للإجزاء جميعها(7).

فهل من تكثيف الجهود للتوافر على تحقيق (الفعال) من هذا التراث المخطوط المفهرس ؟!

إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة [8].

لقد طرحت مصر فكرة مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية إيماناً منها بأنه ليس بالخبز وحده يحى الإنسان، وأن الثقافة التى هى غذاء العقل والضمير والوجدان لا تقل أهمية عن الخبز والمتطلبات المادية للإنسان.

الرئيس / محمد حسني مبارك

أجدد دعوتى لجميع الحكومات وجميع المنظمات الدولية الحكومية وغير الحكومية والمؤسسات الخاصة والعامة ولهيئات التمويل ولأمناء المكتبات والقائمين على المحفوظات وللبشر فى مختلف الدول إلى دعم جهود الحكومة المصرية فى تنفيذ هذا المشروع الدولى الكبير وذلك بالتطوع بالتبرعات والمعدات والكتب والخدمات أو بالمساعدة على تنمية الموارد البشرية للمكتبة الجديدة.

نداء مدير عام اليونسكو 10 مايو 1995

وقد قام الرئيس **مبارك** بوضع مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية تحت رعايته منذ عام 1987. وتأكيداً على الأهمية العظمى والعناية الكبرى التى توليها الحكومة المصرية للمشروع، فقد صدر فى عام 1988 القرار الجمهورى رقم 523 بإنشاء الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية لتأخذ على عاتقها مسئولية تنفيذ وإدارة المشروع، ومقر الهيئة مدينة الإسكندرية، ولها شخصيتها الإعتبارية المستقلة ويرأس مجلس إدارتها وزير التعليم العالى. والمكتبة الجديدة مقرر لها أن تصبح «مكتبة بحثية عامة» لها دورها فى تقدم وإثراء المعرفة. وستضم المكتبة معاهدا متخصصة ومجموعات مرجعية فريدة تنصب على حضارات منطقة حوض البحر المتوسط.

وعقب اللقاء التاريخى الذى عقد بأسوان فى الثانى عشر من فبراير لعام 1990، قام أعضاء اللجنة الفخرية الدولية، وتضم فى عضويتها ملوكا

ورؤساء للدول وشخصيات دولية بارزة والتى ترأسها السيدة الفضلى سوزان مبارك بتوقيع إعلان أسوان لدعم مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة.

وقد صرح هؤلاء جميعاً فى إعلان أسوان بأن المكتبة ستكون شاهداً على لحظة حاسمة فى تاريخ ووجدان الإنسانية، وقاعدة لتزويد الباحثين فى جميع أنحاء العالم بالمعلومات والمعارف المتقدمة والدقيقة. وستكون مكتبة الإسكندرية بما تمثله من ارتباط بالماضى وانفتاح على المستقبل، فريدة من نوعها وتمثل منطلقاً هاماً للتنمية الفكرية والثقافية كقاعدة للتنمية الإجتماعية والاقتصادية والحضارية الشاملة.

والهدف الرئيسى من مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية هو إنشاء مكتبة بحثية علمية فريدة فى مجموعاتها. وقد روعى فى تصميم المكتبة أن توفر الإمكانات والموارد العلمية المعلوماتية التى تمكن الباحثين فيها من تحقيق التقدم العلمى والتميز المعرفى الذى قدمه للعالم علماء المكتبة القديمة، الأمر الذى سيضمن لها عالميتها وسيجعلها أهلاً لتحديات القرن الحادى والعشرين، وستسهم المكتبة بفاعلية فى تنمية البحث وتقدم المعرفة، كما ستبصح معهداً فريداً للبحوث ومرفئا لطلبة العلم والباحثين فى العالم بأسره. كل ذلك بالإضافة إلى كونها مصدراً ثميناً للمعلومات لدعم اتخاذ القرار وتوسيع آفاق التنمية الثقافية والإجتماعية والاقتصادية لمصر وللمنطقة، وبلاشك فسوف تلعب المكتبة دوراً رئيسياً فى التعاون بين شمال حوض البحر المتوسط وجنوبه، وكذلك بين شرقه وغربه. ولقد قامت مكتبة الاسكندرية بمعاونة من اليونسكو وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية، وبالاستعانة بخبراء مصريين ودوليين برسم سياستها لإقتناء الكتب وأوعية المعلومات المتميزة بهدف تكوين مجموعة فريدة وتفادى الإزدواجية والتداخل مع اختصاصات مكتبات بحثية أخرى.

الإنجازات :

- 1988 : القرار الجمهورى بإنشاء الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية.
- 1989 : المكتب النرويجى سنوهيتا يحصل على الجائزة الأولى فى المسابقة المعمارية الدولية لتصميم مبنى المكتبة.
- 1993 : توقيع عقد التصميم والإشراف على التفيذ مع اتحاد مكتبه سنوهيتا / حمزه.
- 1995 : البدء فى تنفيذ أعمال المرحلة الأولى (الأساسات وهندسة التربة).
- 1996 : إتمام تنفيذ أعمال المرحلة الأولى، والبدء فى تنفيذ أعمال المرحلة الثانية (الإنشاءات - الخدمات - التشطيبات - الأعمال الخارجية).
- 1999 : إفتتاح المكتبة.

حقائق وأرقام :

المساحة الكلية للموقع : 45000 متر مربع.

المساحة الكلية للمبنى : 80000 متر مربع.

عدد المجلدات : 400000 عند الإفتتاح، 8 مليون مجلد على المدى البعيد.

عدد المخطوطات والكتب النادرة : 10000 / 50000

المحتوى السمعى البصرى والوسائط المتعددة : 10000 / 50000

عدد الخرائط : 50000

مجال الإتصال المعلوماتى عبر الشبكة الدولية والطريق السريع للمعلومات: مع كافة دول العالم.

عدد العاملين : 250 عند الإفتتاح، 550 عند اكتمال المحتوى الفكرى.

ويضم مجمع مكتبة الإسكندرية : المكتبة الرئيسية، ومكتبة للمكفوفين،

ومكتبة للشباب، والمعهد الدولى لدراسة المعلومات، ومعهد التوثيق، ومعهد الخطوط، ومتحف الخطوط والمتحف الأثرى ومتحف العلوم والقبة السماوية بالإضافة إلى مركز الإسكندرية الدولى للمؤتمرات وقاعة الخالدين، وكافتيريا، ومخزن للكتب.

هوامش الفصل الخامس

1) د. يوسف زيدان، مخطوطات الطب والصيدلة بالإسكندرية، استكشاف تحليل، بحث ألقى فى الندوة الدولية الأولى لمركز التراث القومى والمخطوطات، كلية الآداب - جامعة الإسكندرية 1 - 2 أبريل 1998، ص 9 - 10.
2) يمكن الوقوف على دَحض هذه الفرية عن المسلمين فى كتاب الدكتور مصطفى العبادى، مكتبة الإسكندرية القديمة، مرجع مذكور.
3) د. يوسف زيدان، فهرس مخطوطات جامعة الإسكندرية، طبعة معهد المخطوطات العربية، القاهرة 1994، جـ 1، ص 7 - 8.
4) نفس المرجع، ص 8.
5) د. ماهر عبد القادر محمد، الطب العربى، رؤية ابستمولوچية، دار النهضة العربية، بيروت 1997، ص 94.
6) أنظر تفاصيل هذه الدراسة فى المرجع السابق من ص 91 : ص 112.
7) فهرس مخطوطات بلدية الإسكندرية، أعداد د. يوسف زيدان، تصدير أ. د. محسن زهران، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية 1998، ص 11.
8) أنظر ملحق النشرة الإعلامية الأربعين الصادرة عن الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية سبتمبر 1998.

وبعد هذه الجولة الإسكندرانية أثرت أن أختتم فصول هذا الكتاب بالحديث عن علم من أعلام الإسكندرية المعاصرين الذى طالما صال وجال بين ربوعها متعلماً ومعلماً حتى صار من أبرز رموزها - بل ومصر والعالم العربى - المفكرين، أنه شيخ فلاسفة مصر الاستاذ الدكتور محمد على أبوريان عليه رحمة الله.

ويأتى هذا البحث - فى أبوريان - وفاءاً منى كتلميذ تتلمذ على الشيخ مدة طويلة، فى زمن ندر فيه الوفاء وتوارى مع كثير من القيم الإنسانية النبيلة.

الفصل السادس

أبو ريان السكندرى

بين «الأنا» و«الآخر»

أولاً : أبو ريان : مسيرة فكرية :

يُعد الدكتور أبو ريان [1]. واحداً من أبرز المفكرين السكندريين المعاصرين الذين أسهموا بنصيب وافر فى حياتنا الثقافية، تشهد بذلك حياته الحافلة بالنشاط العلمى والثقافى والاجتماعى.

ففضلاً عن عمله الجامعى على مدار ما يقرب من نصف قرن، وما شغله من مناصب خلال هذه الفترة، وما قدمه من مؤلفات، وأبحاث، ومشاركة فى مؤتمرات وندوات، وتخريج لصفوة الباحثين المنتشرين فى أرجاء الوطن العربى، فقد أسهم فى العديد من المؤتمرات والندوات الثقافية والمحاضرات العلمية خارج قاعات الجامعة، كما تولى الاشراف على مجلات ثقافية وفلسفية [2]. وخصص جزءاً كبيراً من وقته متعاوناً لإزدهار الحركة الثقافية بالإسكندرية وتكوين جيل من شباب المثقفين لمتابعة المسيرة العلمية.

أما عن مؤلفات الدكتور أبو ريان، فقد ترك الكثير من المؤلفات الهامة التى أثرت المكتبة العربية. وتتميز معظم هذه المؤلفات بالنزعة الشمولية أو الموسوعية، حيث تظهر هذه النزعة فى معظم مؤلفاته فى مجال الفكر الفلسفى بعامة، والفكر الإسلامى بخاصة. وليس أدل على ذلك من موسوعته الفلسفية - إن جاز هذا التوصيف - التى تشتمل على التأريخ لتاريخ الفلسفة ابتداءً من إرهاصاتها الأولى عند اليونان، وحتى العصر الحديث والمعاصر وذلك بعرض هذا التراث الفلسفى الطويل فى جملة مؤلفات هى :

1) تاريخ الفكر الفلسفى عند اليونان - الجزء الأول من طاليس إلى أفلاطون.
2) تاريخ الفكر الفلسفى عند اليونان - الجزء الثانى أرسطو والمدارس المتأخرة.
3) تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام - الجزء الأول المقدمات العامة.
4) الفرق الإسلامية وعلم الكلام - الفلسفة الإسلامية.
5) تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام - الجزء الثانى الحركة الصوفية فى الاسلام.

6) تاريخ الفكر الفلسفى ـ الفلسفة الحديثة.

وقد أقتصرت على ذكر هذه الكتابات من جملة مؤلفات الدكتور أبو ريان لاعتقادى أنها وحدها تكفى لأنِ تكون موسوعة فلسفية، ناهيك عن بقية مؤلفاته والتى تربو ـ خلافاً لما ذُكر ـ على الأربعين مؤلفاً فيما بين تأليف وتحقيق وبحث منشور[3].

وتأتى هذه النزعة الشمولية عند الدكتور أبو ريان فى زمن نتأرجح فيه بين التخصص الدقيق، وبين تراكم المعلوماتِ ولكنِ يبدو أن الدكتور أبو ريان كان رافضاً للكلف بالتخصص الضيقِ، وكتاباته خير مثال على ذلك.

وللوقوف على هذه النزعة الشمولية، لابد وان نتبع ما يسمى فى علم اجتماع المعرفة بتحليل المضمون أو المحتوى Content Analysis. ولنأخذ مؤلفاً واحداً من هذه المؤلفات السابقة كمثال لرأى هذا، وليكن تاريخ الفكر الفلسفى عند اليونان بجزئية الأول والثانى.

يبحث الجزء الأول فى الحياة العقلية عند اليونان ابتداءً من الفكر السابق على ظهور الفلسفة اليونانية، وانتهاءً بفلسفة أفلاطون. وينقسم هذا المؤلف إلى ثلاثة أبواب، وتنقسم هذه الأبواب إلى فصول.

وتبحث فصولُ البابِ الأول الأربع بعد المقدمة العامة الطويلة فى موضوع واحد متناسق ينصب على دراسة الفكر الفلسفى عند اليونان، وكيف أن اليونانيين قد أتخذوا من العالم الخارجى محوراً للفكر الفلسفى، وذلك فى المرحلة السابقة على سقراط، تلك المرحلة التى أهتم الفلاسفة فيها بالظواهر الطبيعية، وتساءلوا عن حقيقة المبدأ الأول للأشياء وللوجود. وقد تمثل هذا الاتجاه فى المدرسة المطلية عند طاليس، وانكمسندريس، وأنكسيمانس. ثم تجدد التساؤل بطريقة رياضية عند الفيثاغوريين. ولكن البحث عن هذا المبدأ قد آثار مشكلات عن الوجود واللاوجود، والثبات والعدم والصيرورة والحركة، فتصدى هرقليطس والمدرسة الملطية لمناقشتها. وحاول الطبيعيون المتأخرون أن يوفقوا بين هذه الآراء، وأراء الطبيعيين الأوائل، وذلك بعد أن تعمقوا فكرة

الصيرورة، وأدركوا أن هناك جواهراً أزلية هى أصل الموجودات، فجاءت محاولاتهم لتفسير اتصال هذه الجواهر وانفصالها وتكاثفها وتخلخلها، إلى غير ذلك من محاولات مختلفة تمثلت فى مواقف كل من انباذوقليس وديمقرايطس، وانكساغوراس.

وفى الباب الثانى ينتقل الدكتور أبو ريان نقله «طبيعية» مسايراً للاتجاه العام للفكر الفلسفى اليونانى، ذلك الذى تحول من دراسة الطبيعة والبحث عن العلل الأولى للاشياء والوجود إلى دراسة الإنسان، وإلى معرفته، فيبين لنا أن هذا الاتجاه قد بدأ بأصحاب النزعة النقدية، ألا وهم السفسطائيون، هؤلاء الذين جعلوا من الإنسان وكيانه الفردى محوراً لتفكيرهم الفلسفى وفى سبيل ذلك اتجهوا إلى التجارب العملية بغية جمع أكبر قدر منها، وانتهوا من ذلك إلى القول بنسبية المعرفة، وأن الإنسان مقياس الاشياء جميعاً، وذلك على حد قول أحد أعلام هذه المدرسة، وهو بروتاغوراس، ذلك الذى يمثل مع زملاءه من أمثال : بروديكوس، وجورجياس، وكاليكليس، وكريتاس مجمل أراء هذه المدرسة فى نسبية المعارف والقيم ومن ثم باستحالتها.

ويخصص الدكتور أبو ريان الفصل الثانى من هذا الباب للحديث عن سقراط موضحاً كيف قام هذا الفيلسوف بمواجهة التيار السفسطائى الذى أوشك أن يجرف المجتمع الاثينى إلى بحور التيه والضلال. فوضع القواعد والقوانين الكلية فى جميع ميادين المعرفة - ولاسيما الميدان الأخلاقى - على صورة تعريفات فكان يريد صادقاً أن يزيل عن أعين الناس غشاوة الجهل. وقد اتبع نفس الأسلوب السفسطائى، فجادل الناس فى الأسواق وفى المجتمعات الخاصة والعامة، وفى حلقات الرياضة والمصارعة مستخدماً منهجة المشهور الذى ابتدعه، وهو منهج التهكم والتوليد. وقد انتهى به مطاف مناقشاته إلى أن يقف أمام المجلس النيابى الأثينى الذى أدانه وحكم عليه بالأعدام متجرعاً للسم، فلم يحاول أن يبرئ نفسه متنكراً لمبادئه بالاعتذار عما كان يراه حقاً.

ثم نراه ينتقل بعد هذا الفصل إلى الباب الثالث، وهو يخصصه للحديث عن أفلاطون ومدرسته.

ويشتمل هذا الباب على ثمانية فصول، يتناول فيهم منزلة أفلاطون فى عصره، وكيف أن مذهبه يحتل مركز الصدارة. فى تاريخ الفكر الإنسانى وليس أدل على ذلك من تأثيره الواضح فيما تلاه من عصور حتى وقتنا الراهن.

فنراه يعرض فى شمولية بارعة لكل ما يتعلق بالمذهب الأفلاطونى ولاسيما لنظريته الهامة فى المعرفة، من حيث أن النفس حينما تتجه إلى العالم المحسوس، وهى مازالت مرتبطة بالبدن بهدف تحصيل معارفها، فانها تدرك الكثرة والتغير فى هذا العالم الحسى، وهذا الإدراك لا يكفى لتأسيس معرفة النفس بالعالم، إذ أنها لا تلبث أن تتوارد عليها ذكريات من العالم المعقول تشبه الموضوع الحسى. وبتكرار هذه الذكريات تتجه النفس إلى طلب المزيد من المعرفة الحقة، أى الاقتراب رويداً من عالم الحقائق الذى كانت تحيا فيه قبل حلولها بالبدن.

ففعلُ المعرفة هو الأساس لحركة صعود النفس التدريجى من عالم الحس إلى عالم المثل، مارة بمحطات روحية تكون موضوعات لمعرفتها. وبعد أن تصل النفس إلى قمة العالم المعقول، وتكشف عن وحداته، تعود ثانية إلى كثرة العالم المحسوس متخذة من «الجدل الهابط» طريقاً لها، ذلك الطريق الذى يقابل ما تسكله فى صعودها، وهو «الجدل الصاعد».

ثم يعرض الدكتور أبو ريان لبقية مذهب أفلاطون فى : النفس - وجودهما ومصيرها - العالم الحسى - العالم المعقول - نظرية المثل - أراءه الشفوية التى لم ترد فى محاوراته، بل أوردها تلميذهُ أرسطو، وخاصة فى كتابه «السماع الطبيعى» - الأُخلاق وكيف ربطها بالسياسة عن طريق ربط فكرة الخير والفضيلة بالحكمة والتأمل، الأمر الذى كان له صداه البعيد عند المثاليين والعقليين من الاخلاقيين فيما بعد.

أمـا الفكر السياسى عـند أفلاطون، فقد أوضح الدكتور أبو ريان - بعد عرضه - أنه كان الدعامة الرئيسية التى تفرعت عنها المذاهب السياسية فيما بعد. فنشأت تيارات صادرة عنه فيما عرف عند المسيحيين والمسلمين من تأليفات حول المدن الفاضلة. ومما يلاحظ أن كتابات الدكتور أبو ريان فى هذا الكتاب قد جاءت كلها موثقة من خلال استعراض مصادر أصلية لمن يكتب عنهم، مثل : محاورات أفلاطون وخاصة : الجمهورية، وجورجياس، وفيدون، وفيليبوس، والمأدبة. وكتاب السماع الطبيعى لأرسطو.. إلى غير ذلك.

ويشتمل الجزء الثانى من سلسلة تاريخ الفلكر الفلسفى على ثلاثة أبوابٍ، خصصهم الدكتور أبو ريان للحديث عن أرسطو والفلسفة الهيللينستية. وذلك بغرض بيان الصلة الوثيقة بين المذهب السقراطى ومذهب كل من أفلاطون وأرسطو، وكيف أن هذه المذاهب الثلاث إنما تصدر عن تيار فكرى واحد رغم الاختلافات الظاهرة بينها، مما يسمح بأن نتكلم عن فلسفة سقراطية، ومدرسة سقراطية تشمل النتائج الفكرى لسقراط وأفلاطون، وأرسطو معاً، بحيث يمثل كل منهم دوراً مميزاً فى تاريخ هذه المدرسة.

ولكن هذا لا يعنى وجود نوع من التشابه أو الاستمرار الواضح بصدد هذه المواقف، بل على العكس من ذلك نجد أرسطو يوجه انتقادات مريرة إلى استاذه أفلاطون على الرغم من ان بدايته كانت من نقطة انتهاء استاذه إزاء المسائل الفلسفية التى بحثها.

فلقد جاء الباب الثالث بفصوله العشر متناولاً للمذهب الارسطى بكل جزئياته، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة عنه إلا وقد أوضحها فى أسلوب سلس ولفظ دقيق ومنهجية بارعة، تلك التى تتجلى بوضوح فى الترتيب المنطقى لفصول هذا الباب، والتى جاءت كما يلى :

الفصل الأول : يتناول حياة أرسطو (384 - 322 ق. م).

الفصل الثانى : يتناول مؤلفاته، والتى تشمل مؤلفات فترة الشباب، ومؤلفات دور الانتقال ومؤلفات الدور الأخير، والتى تبلورت فى الكتب

المنطقيـة، والكتب الطبيعيـة، والبيـولوچيـة، والميتـافيزيقيـة، والاخلاقية والسياسية والفنية.

ولقد لاحظ الدكتور أبو ريان أن هذه المؤلفات تتميز بالأسلوب العلمى الجاف الشديد التركيز، وذلك فى مقابل مؤلفات أفلاطون تلك التى امتازت بطابعها الأدبى الرفيع. الأمر الذى جعلها من روائع الأدب اليونانى.

الفصل الثالث : يعرض فيه مؤلفنا لتقسيم الفلسفة عند أرسطو وذلك على حسب صاحبها الذى ميز فيها بين ثلاث مجموعات من العلوم هى :

1) العلوم النظرية والتى تنقسم إلى ثلاث أقسام رئيسية وتبحث هذه العلوم فى الوجود من حيث هو وجود متحرك محسوس.
2) العلوم العملية، والتى تنقسم إلى : الأخلاق والسياسة وتدبير المنزل.
3) العلوم الشعرية، وهى التى تتعلق بالانتاج الفنى وخصائصه.

ويتعرض الفصل الرابع لمشكلة المنطق الأرسطى، وفيه نجد الدكتور أبو ريان يخالف معظم المؤرخين والمناطقة الذين تمسكوا بالقول بأن أرسطو هو واضع المنطق الصورى بأكمله. فنراه يوضح من خلال بحثه فى هذه الفصل، كيف أن المنطق الصورى لم يولد مكتملاً ناضجاً دفعة واحدة على يد أرسطو، بل خضع لعامل التطور الفكرى والحضارى. لذا نراه يذهب إلى أنه ينبغى التأريخ لهذا المنطق ابتداءً من الجذور العميقة له، فنبحث عنه أولاً فى الثورة السفسطائية العنيفة التى ألمت بالفكر اليونانى، وكيف أنها دفعت بالإنسان إلى أن يتحسس كيانه فى مواجهة الموضوعات الخارجية، وأن يحدد مركزه منها، وأن يستعرض قواه الإدراكية، فيمتحن قدرتها ويلمس قصورها.

ثم علينا أن نتابع سقراط بعد ذلك فى جولاته الجدلية التى أعاد عن طريقها تشييد صرح العلم وتجديده للتصورات ووضعه للتعريفات. ثم نتبع نهاية مطاف هذا الجدل إلى أن أصبح علماً عند أفلاطون يستخدم فيه فن القسمة الثنائية.

هكذا رأى الدكتور أبو ريان قبل البدء بالتأريخ للمنطق الأرسطى.

وتتعرض بقية فصول هذا الباب من الخامس إلى التاسع لعرض بقية المذهب الأرسطى، وذلك فى النفس، وما بعد الطبيعة أو الفلسفة الأولى، والاخلاق والسياسة.

ثم يقدم الدكتور أبو ريان تقييمة للمذهب الأرسطى، وكيف أن أرسطو لم يقطع الصلة بينه وبين استاذه أفلاطون تماماً، بل أن فلسفته قد انتبثقت بالتدريج عن الأفلاطونية، ثم ما لبث ان تطورت وتجاوزتها. ومع هذا فقد ظلت حلقات الترابط قائمة بين المذهبين لا يستطيع أحد أنكارها أو التقليل من أهميتها من حيث أنها تمثل تياراً مستمراً، ثم يعود فيلتئم تحت تأثير النزعة التلفقية فى مدرسة الإسكندرية الفلسفية مع ميل ظاهر إلى أفلاطون.

وينتهى الكتاب بالباب الخامس بفصوله الخمسة، تلك التى تتناول الفلسفة الهيللينستية، فتتحدث عن الأبيقورية، والرواقية، ومدارس الشك. ثم العلم والفلسفة فى العصر الرومانى، وعرض لأراء كل من فيلون السكندرى وأفلوطين والأفلاطونية المحدثة.

وهكذا ينتهى بنا المطاف عبر هذه الرحلة اليونانية فى مؤلف الدكتور أبو ريان «تاريخ الفكر الفلسفى عند اليونان» بجزئيه، إلى التسليم بنزعته الشمولية فى كتاباته.

فقد عرض لنا فى الكتاب رحلة الفلسفة اليونانية فى مسيرتها التاريخية عبر أثنى عشر قرناً من الزمان وذلك منذ أن بزغت لأول مرة عند اليونان فى القرن السادس قبل الميلاد إلى أن خبأ نورها فى القرن السادس الميلادى فيما كان يعرف بالعالم الهيللنيستى.

فقد عرض لهذه الظاهرة التاريخية - وأعنى بها الفلسفة اليونانية - وليدة العقل الإنسانى وثمرة قدرته على التحليل والتركيب، والاحتكاك بالعالم الخارى، وبالذات الإنسانية وبالوجود الأعلى. وقد تتبع مراحلها منذ نشأتها

إلى قمة عصر ازدهارها، منتهياً إلى مرحلة الذبول والانحطاط، والتى ابتدءت مع العصر الهيللينستى إلى نهاية العالم القديم.

وكل ذلك بأسلوب غاية فى الدقة والعمق والتمكن من اللغة الفلسفية والعربية، هذا فضلاً عما أتى به من أراء جديدة ومبتكرة فى كل الموضوعات التى تناولها بالدراسة والبحث. الأمر الذى أنعكس على منهجه العلمى، وعلى تلامذته من أساتذة الفكر فى الجامعات المصرية والعربية، هؤلاء الذين يشكلون جيلاً أو مدرسة فكرية مميزة. ويتشرف كاتب هذه السطور بأن يكون آخر من حبى فى أروقة مدرسة الدكتور أبو ريان عليه رحمة الله.

ولقد تميز الدكتور أبو ريان بمواقف فكرية بارزة تجاه قضايا أمته العربية والإسلامية، وأهمها علاقة الغرب الأوربى بالعالم العربى والاسلامى فى العصر الحديث، فكتب عدة مؤلفات عبر بها عن موقفه إزاء هذه العلاقة. هذا بالإضافة إلى تعبيره الفعلى الذى تمثل فى اسهامه فى الحركة العربية برياسته لمكتب إغاثة اللاجئين بالاتحاد العربى قبل ثورة يوليو 1952.

ويمكن تتبع موقف أبو ريان هذا فى الصفحات التالية تحت عنوان «أبو ريان بين الأنا والآخر». وأنا أقصد بالأنا، الأمة العربية الإسلامية، وبالآخر الغرب الأوربى.

ثانيا : العلاقة بى «الأنا» و «الآخر» عند أبو ريان :

يرى الدكتور أبو ريان أن الغرب «الآخر» قد اعترف بنهضة الحضارة الإسلامية فيما بين القرن السابع والقرن الحادى عشر الميلادى. وكيف أن تلك النهضة الإسلامية كانت بمثابة القاعدة الراسخة التى بنى عليها الغرب حضارته الحديثة بعدة طرق، فيقول : وقد اعترف الغرب بهذا التفوق الإسلامى الكبير، بل إن كتابهم كانوا هم رواد حركة الاستشراق المحدثة التى كشفت عن جوهر الحضارة الإسلامية ونفاستها فى عصر الإنارة الإسلامى الأول، وعن الأسس الإسلامية الحضارية التى بنى عليها الغرب حضارته الحديثة سواء كان ذلك عن طريق بغداد أو دمشق أو صقلية أو الأندلس، أو

الحروب الصليبية بصفة عامة حيث كانت مجالاً لإحتكاك مرير بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى تكشفت معه للغرب نواحى القوة والعظمة الإسلامية فى هذه الحروب التى استمرت زهاء مائتى عام كان لها أثرها فى زيادة تأثير الحضارة الإسلامية فى زيادة تأثير الحضارة الإسلامية فى حضارة الغرب الهابطة آنذاك، وكيف أن الغرب المسيحى قد تعلم الكثير من الدروس عن أخلاقية الإسلام وفروسية جيوشه وشجاعة معتنقية فى مواجهتهم للغزوات الصليبية وتحدياتها اللأخلاقية الغاشمة التى لا تزال نذرها تتبدى فى الأفق ولا تكاد تغيب عن أعين المسلم اليقظ الفطن الحافظ لدين الله والمحافظ على تقاليد هذا الدين الحنيف وعقائده.

عداء «الأنا» للـ «الآخر» :

يتضح عداء «الأنا» للـ «الآخر» عند أبو ريان حينما يشير إلى محاولات «الآخر» الهمجية وهجماته المسعورة للقضاء على الإسلام وأهله - أو «الأنا» شرقاً وغرباً، فى الجزائر والمغرب فى عصر الاستعمار، حيث كانت تطبق سياسة الإبادة الجماعية واصطياد الملسملين كالحيوانات. وما حدث فى الفلبين وفى الهند، وما جرى فى تنزانيا، وما حدث للمسلمين من تحقير وإهانة فى كينيا وأوغندا والحبشة بصفة خاصة. وحركة الإبادة الجماعية للمسلمين فى لبنان، تلك الحركة التى يندى لها جبين البشرية.

ويرى الدكتور أبو ريان أن التعصب الدينى من قبل «الآخر» للـ «الأنا» يظهر واضحاً جلياً من خلال هذه الأحداث التاريخية الدامية. وهو يشير أيضاً إلى مزيد من هذا التعصب حينما يذكر ما جرى فى قبرص حيث كان يراد للقدم الإسلامية الأخيرة فى هذه الجزيرة أن ترحل عنها الى الأبد. ويشتد الصراع ويُشاهد عياناً فى إستمرار مساندة أمريكا والسوق الأوربية المشتركة لليونان ضد تركيا لموقفها العظيم فى الدفاع عن حقوق الأقلية المسلمة فى هذه الجزيرة التى كان يراد لها أن تكون كريت أو فلسطين أخرى ليعيد التاريخ مسيرته على أصوات إستغاثة المسلمين ومرأى بحيرات الدم التى تسيل من

جباههم فى أندلس جديدة يتصدى فيها الغرب دون حياء أو خجل ومن روائه عماراته الحربية للإسلام عقيدة وشريعة، وسلوكاً، ومنهاجاً فى معظم تجمعاته على سطح الأرض.

وتتمثل أخطر مشاكل العداء الغربى للشرق الإسلامى فى نظر أبو ريان فيما يُعرف بمؤمرات الغزو الفكرى الثقافى للإسلام وأقطاره، وذلك بعد أن تحضر الشرق وأجبر جيوش الغرب على الجلاء عن بلاده وأمتلك فى يده مصيره السياسى عن طريق ما سمى بالحرية والاستقلال وحق تقرير مصير الشعوب.

ولم يقتصر الغزو الفكرى الغربى على العلم والتربية والتعليم والثقافة والفن فحسب، بل لقد حمل معه بالإضافة إليها تيارات مسمومة من التبشير المسيحى، وكذلك موجات عارمات من الإلحاد والدعوة إلى معارضة الأديان وتثبيت ركائز النزعة العلمانية (4).

أثر «الآخر» فى «الأنا» :

يذهب الدكتور أبو ريان إلى أن الغرب الأوربى قد أثر تأثيراً بالغاً فى العالم الإسلامى والعربى فى كافة مجالات الحياة : الدينية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والفنية .. وينعكس هذا التأثير من وجهة نظره فيما يلى :

1) أن الشباب المسلم المعاصر يوشك أن يصاب بانفصام فى شخصيته أو بالاغتراب على أقل تقدير، ذلك لان حياته اليومية تزخر بمنجزات الغرب المادية والمعنوية، ففى كل يوم نطالع بأنباء انجازات تكنلولوچية جديدة فضلاً عن طوفان الكتب والنشرات والمجلات الصادرة عن الغرب والتى تكشف عن تياراته الثقافية وفكره النابض بالحياة، وهو مضطر إلى الأخذ بهذه الأساليب التكنلوچية الحاملة للثقافة المعنوية للغرب دون اختيار منه، ولا تزال الصحف والاذاعة المسموعة والمصورة والكتب صادرة فى تزويده بحضارة الغرب وثقافته بأبسط الطرق وأقربها منالا، وإذا ما تلفت إلى واقعة الحضارى فان

عينيه ستصدمان بصور التخلف، والتفسخ الاخلاقى والسطحية العلمية فضلاً عن الجمود الدينى ورفض كل محاولة لاثراء الاسلام بما لا يمس جوهر العقيدة من مفاهيم الحضارة الغربية، ثم هو يجد فى الغرب فصلاً للدين عن الدولة بينما يلتزم المسلمون بعدم الفصل بينهما وذلك تطبيقاً لتعاليم الاسلام.

ونتيجة لهذا كله يتجه فريق من شباب المسلمين المتمسكين بدينهم إلى الخضوع لثنائية صارمة، فيكون الاسلام قبلتهم الدينية، والغرب وثقافة حياته اليومية قبلتهم الحضارية، وفى هذا تمزق للشخصية يسلبها عناصر القوة والصمود والفعالية الحقه.

أما الفريق الآخر فانه أما أن يتجه البعض منه إلى موقف اللامبالاة والاغتراب، فيحس أن ذاته وتكوينه الثقافى الغربى فى غربة عن قيم الاسلام ومبادئه، فيتجه إلى الغرب وحضارته كلية جاعلاً منه القدوة والمثال، وأمثال هؤلاء الشباب قد تتملكهم عوامل الترفع الكاذب والتعالى على القيم الموروثة الخالدة.

وقد يتجه البعض الآخر من هذا الفريق إلى «التجديد» فى الاسلام فيصبغون الاسلام بصبغة غربية وينادون بمساواة المرأة بالرجل فى كل شئ حتى فى الميراث وأداء الشهادة وتولى مناصب الدولة العليا والقضاء والفتيا.. الخ. وذلك على غرار ما فعل كمال أتاتورك الذى اعتصر الدين فى تركيا فلم يبق منه إلا اسمه بعد أن فصله عن الدولة.

وقد حدث ما يقرب من هذا فى اندونيسيا وفى تونس مؤخراً، على درجة أقل مما فعله كمال أتاتورك.

يبقى فريق ثالث من الشباب وهم المتأثرون بدعوى «التحديث» وهم وسط بين أصحاب التغريب الكامل، إذ يرون أننا يجب أن نطلع على كل ما انتجه الغرب من حضارات مادية ومعنوية، ثم نعمل فيها العقل الإسلامى النقدى لنتخير من بينها ما يصلح لنا فى اطار التعاليم والمفاهيم الاسلامية، وبمعنى آخر يجب الحفاظ على الشخصية الاسلامية، على أن ننمى جوانبها بالعناصر

المختارة والصالحة من حضارة الغرب شاخصين بأبصارنا إلى تراثنا القديم لاحيائه بروح العصر وبذلك تتجمع لدينا طاقة خلاقة أصيلة تدفع بنا فى طريق التقدم والنمو الحضارى بطابع اسلامى مميز فلا علمانية ولا فصل للدين عن الدولة.

محاولة الخروج من الأزمة

من هنا يرى الدكتور أبو ريان أنه ينبغى علينا أن نواجه فى حزم التحديات الغربية التى تتمثل فى الصراعات الفكرية تلك التى يثيرها الغرب بهدف التأثير فى شبابنا لاسيما بعد أزمة المعلومات التى يمر بها العالم اليوم، وينبغى فى هذه الحالة أن نعطى للشباب قسطاً كبيراً من ثقافة الإسلام وقيمه ومبادئه الحقيقية حتى يمكن لهم بها أن يتسلحوا ضد الأفكار المهاجمة للاسلام، وبذلك نقضى على أزمة التدين بين الشباب المعاصر ونعمل جادين على شغل أوقات الفراغ بالمدرسة والجامعة والمنزل والشارع، على أن أهم ما يواجهنا فى المستقبل هو ضرورة العمل على توحيد المناهج فى مدارسنا وجامعاتنا فلا يتشعب التعليم إلى مسار أجنبية تقضى على الهوية الإسلامية والعربية للطالب وتمحو السبيل أمامه للاقبال على الحضارة المعاصرة وما تقدمه من علم وتكنلولوچيا دون أن يفقد شيئاً من تراثه الأصيل، والذى ينبغى إعادة النظر فى تنقيته وترشيده.

وهكذا يستطيع المسلم المعاصر أن يواجه تحديات العصر ومذاهبه التى تتجه فى مجموعها إلى اقتلاع جذور الإيمان والتضحية بالدين على مذبح العلم الكاذب أو الفلسفات المتوهمة.

وإذا كان الغرب قد أناخ على صدورنا بحضارته المعاصرة المتقدمة، فان هذا لا يعنى أن نجعل من أنفسنا أرقاء لها، فنلغى شخصيتنا القومية الإسلامية المتفردة، وكذلك فإننا لا ينبغى أن نتقوقع على أنفسنا ونصم آذاننا عن مظاهر التقدم الحضارى التى تقتحم مجتمعنا وعقول أبنائنا.

وهكذا تبرز أهمية التساؤل الذى يبدو من خلال الحوار الحضارى الإسلامى حول أى السبل والمناهج أحرى بالإتباع ؟

يجيب الدكتور أبو ريان على نفسه قائلاً : وفى رأيى أن هذه الطرق والمناهج تتحدد فى ثلاثة محاور رئيسية هى : التجديد والتحديث، والتغريب، بعد إستبعاد أسلوب الجمود والإجترار الفكرى الذى تجاوزته الحركة الفكرية الإسلامية المعاصرة بمراحل.

وفيما يلى موجز مختصر لتصور الدكتور أبو ريان لهذه المحاور :

1) التجديد :

يعرف الدكتور أبو ريان التجديد تعريفاً أولياً قائلاً : أنه محاولة المواءمة بين القديم والحديث على أن تكون نقطة الانطلاق هى الأصول القديمة وأن يراعى عند الاجتهاد فى تطبيق الحكم على الوقائع الجديدة ألا تتعارض مع ما سبق للمسلمين أن أجازوه من أحكام شرعية فى ظروف شبه مماثلة. ويضرب الدكتور أبو ريان العديد من الأمثلة على ذلك، ومنها المثال التالى :

لقد جاء بعض سكان ولايات البلطيق من المسلمين قبل الحرب العالمية الأولى يطلبون من الخليفة العثمانى فى أسطنبول أن يصدر فتوى بشأن صيامهم، وقد أجمعت النصوص الدينية على أن الصيام يبدأ من الفجر مصداقاً لقوله تعالى : «وكلوا وأشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود». وكذلك فإن إفطار المسلم فى نهاية اليوم مرهون بغياب الشمس عند المغرب، وأيضاً فإن شهر الصيام إنما يحدد فى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً». قال هؤلاء لمفتى المسلمين فى الأستانة بعد أن أحالهم السلطان عليه : إننا قوم لا يستبين لنا ليل من نهار خلال ستة شهور من السنة فلا نعرف لنا فى أغلب الأحايين مشرقاً للشمس أو مغرباً لها، وكذلك يمتنع علينا رصد القمر فى أكثر أيام السنة للظروف المناخية التى تحيط بنا فى منطقة القطب الشمالى، فكيف إذن تكون صلاتنا ويكون صيامنا، فأعتذر مفتى الخلافة عن الأدلاء برأيه وعلق الحكم حيث أنه لا نص لديه يطابق هذا الحال، وبعد أن نشر هذا الموضوع فى الصحف والجرائد السيارة إستغله أعداء

الاسلام والمستشرقون ذريعة للنيل من الإسلام كدين عالمى.

إذ أن الله تعالى يقول فى معجز كلامه إن الدين أرسل للناس كافة أى أن الإسلام - وهو دين الفطرة - ليس موجهاً إلى شعب بعينه كدين اليهود مثلاً، بل هو دين العالمين بأسرهم ولهذا دعا «محمد» عليه الصلاة والسلام كل العرب المحيطين به فى شبه الجزيرة حتى ينشر كلمة الله فيما بينهم، وكذلك أرسل إلى مصر والحبشة. وإذن فان تعاليم الإسلام على هذا النحو ينبغى أن تكون صالحة فى التطبيق للمسلمين كافة من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى، ولكن العجز عن الاجابة عن هذا التساؤل، الذى يوجهه مسلمو البلطيق إلى مفتى الاستانة سيؤدى إلى تثبيت فكرة المستشرقين عن الإسلام وكيف أنه دين لا تنفذ تعاليمه إلا فى منطقة المدارين : السرطان والجدى.

فسمع بهذا مفتى العراق فى ذلك الوقت فأصدر فتواه التى يستند فيها إلى دراسة لموضوع الصيام وللأحكام الشرعية الخاصة به، فتساءل أولاً عن علة الصيام، فقال : أنه إمتناع النفس عن تناول الطعام والشراب خلال فترة العمل بالنهار لتحقيق غايات سامية منها : الشعور بحاجة الجائع الفقير والعكوف على العبادة الخالصة لله.. الخ.. ولما كان متوسط ساعات العمل فى النهار لدى المسلمين فى الشرق الأوسط هى المثل الذى ينبغى القياس عليه - لأن هذه منطقة اعتدال - لهذا فإنه يتعين على مسلمى البلطيق أن يأخذوا متوسط ساعات الصيام فى اليوم عند مسلمى منطقة الاعتدال ويجعلوا هذا المتوسط أساساً لصيامهم على أن يكون أثناء ساعات عملهم فتكون بداية هذا المتوسط الزمنى عند امتناعهم عن الطعام أى فى الفجر ويكون افطارهم عند انتهاء ساعات هذا المتوسط الزمنى أى عندما يسمى عندهم إصطلاحاً بالمغيب، وهكذا أمكن حل هذه المشكلة عنْ طريق الاجتهاد بالرأى.

وفى مقابل هذا التجديد المقبول شرعاً يذكر الدكتور أبو ريان أن هناك دعوات للتجديد المرفوض الذى يأباه الشرع. ومن أمثلتها، ما استنته القاديانية من أبطال فريضة الجهاد فى الإسلام وكيف أنها كانت فى نظرهم مبدأ

مفروضاً على المسلمين إبان انتشار الإسلام وتوسعه، أما الآن - كما يقولون - فقد استقرت دعائم الاسلام وانتشر فى أقطار المعمورة، ومن ثم فلا حاجة بنا إلى الجهاد. والأمر الذى لاشك فيه أن اجتهاد القاديانية فى هذه المسألة إنما يعد من قبيل التجديد الباطل المرفوض لأن مبدأ الجهاد قائم ما قام الدين. ونحن نسأل القاديانية لمصحة من أبطوا مبدأ الجهاد والمسلمون يشعرون فى كل مكان بالضعف والاستكانة وإهدار المصالح وتخريب الأوطان وتشريد النساء والفتيان على ما نرى ونسمع كل يوم ؟

أفليس هذا الاضطهاد موجباً لقيام أصحاب دعوة الحق أى المسلمين للدفاع عن ذمار الإسلام وبيضته. الحق أن دعوى القاديانى أساسها النفاق وخدمة المستعمر البريطانى فى الهند، حيث وجد الهنود أن المسلمين بشمالى الهند ولاسيما فى منطقة كشمير هم الذين ظلوا يحاربون الاستعمار الانجليزى الى آخر لحظة من بقائة فى هذه البلاد بعد إستسلامها لهم، فأرادوا أن يضربوا المسلمين بواحد منهم فلقنوه العلوم الحديثة فى انجلترا وعلموه كيف يدعو إلى إبطال فريضة الجهاد حتى تنتشر هذه الدعوى بين المحاربين الهنود المسلمين الأشاوس على الحدود فيسلم الإنجليز من شرهم دون إراقة دم أو استعمال قوة. ولم يكتب لهذه الدعوة الانتشار بل إنقسم أفرادها إلى طائفتين : طائفة تكتفى بإبطال مبدأ الجهاد وتقف عند حدود الشريعة إلى حد ما. أما الطائفة الأخرى فقد التاثت تعاليمها بالاسماعيلية واعتنقت نظريات فى تأليه الإمام بل لقد أدعت هذه الطائفة أن القاديانى هو نبى كالمسيح وأنه يبشر بالخلاص من هذا العالم.

وهكذا تتضح معالم التجديد الصحيح من التجديد الأزيف، ولعل الكثير من الأمور تنتظر الإدلاء بآراء جديدة بعد إستحداث العلم لمنجزات كثيرة كالسيارة والطائرة والتليفزيون والمركبات الكيميائية وغيرها، وكذلك بعد وصول الإنسان إلى القمر ودخولنا فى عصر الذرة والفضاء. هكذا قال الدكتور أبو ريان.

2) التحديث :

يُعرف الدكتور أبو ريان التحديث بأنه اعتبار الحديث الغربى أمراً نموذجياً، ثم الانطلاق منه إلى القديم لمحاولة تحديثه، فإذا كان التغيير شاملاً، كان فى ذلك افتئات على الأصل القديم، ومن ثم يتعين بقدر المستطاع التزام أصول الشريعة، وذلك لأن الخروج على أحكام الشريعة إنما يعد مظنة للخطأ وخضوعاً للهوى واستباحة للنظر العقلى الغير ملتزم بالقواعد الشرعية، وهذا ما لا يقبله مسلم يخشى على دينه الضياع وعلى إيمانه من أن يتبدد هباء.

ومن صور التحديث التى يرفضها أبو ريان، إطلاق إباحة الإفطار فى رمضان بغرض زيادة الإنتاج وتقدم البلاد كما أفتى بذلك حاكم تونس [5]. وأيضاً من قبيل ذلك الإفتاء بتحليل شرب البيرة وكذلك التدخل فى قانون الأحوال الشخصية بالصورة التى أخرج عليها فى عهد السادات حيث أن زواج الرجل من إمرأة ثانية يبيح لزوجته الأولى أن تطلب الطلاق ـ إذا أرادات ـ وكذلك التلفيق فى وضع النصوص الشرعية حول مسكن الزوجية وإيثار المرأة به دون الأم أو الأب إن وجدا. فهذه أمور تسلب الرجل قوامته على المرأة وتتدخل فى الحقوق التى وهبها الله للمسلم فى شرعه العظيم، وليس هناك أعلى من القرآن دستوراً ومنهاجاً للملسمين فكيف يأتى النص واضحاً صريحاً: مثنى وثلاثا ورباعاً ولا يضع النص أى قيد إلا قوله تعالى :

«فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعدلوا» [6].

ومعنى هذا أن الله سبحانه وتعالى لم يكبل إرادة المسلم بقيود، بل وضع له تحذيراً حتى ينتصح ويعرف الطريق الذى يسلكه ومدى قدرته عليه، وليس لولى الأمر أن يتدخل للتشريع فيما جلعه الله من صميم إرادة المسلم فيجد بذلك من هذه الإرادة كما يبدو فى قانون الأحوال الشخصية المعدل أخيراً.

3) التغريب :

يصف الدكتور أبو ريان حركة التغريب بأنها أخطر الحركات التى لوح بريقها فى أعين الشباب وتستحوذ على نفوسهم وأحاسيسهم. ويعرف التغريب بأنه محاولة لإلغاء القديم أصلاً وإهالة التراب عليه دون أن يكون له ذكر أو كان يشكل يوماً جزءاً من ماض مجيد. أما البديل فهو الحضارة الغربية بكل مقوماتها.

ذلك أن التكنولوچيا المصاحبة لهذه الحضارة الغربية قد أغرت الناس بنجاحها فى السيطرة على الأحداث وعلى كافة شعوب هذا العالم، بينما لم يقدم الشرق أو الإسلام المعاصر بصفة خاصة أى صورة بديلة للنجاح فى العلم أو فى الصناعة أو فى الحرب، بل على العكس من ذلك إذ يرى الشباب أمامهم مصارع المسلمين فى جميع أنحاء العالم فى العصر الحديث، فبعد إستعمار طويل لم ينج منه بلد إسلامى واحد سوى موطن الخلافة فى تركيا، نواجه بصور من القتل والدمار والتشريد والتخريب فى الفلبين وفى الهند، فتقطع «كشمير» عمداً من جسم باكتسان، ثم ينهزم المسلمون، فتنفصل بنجلاديش ويضرب المسلمون فى «أسام» وفى الهند ويقتلون بالألوف، ويسام المسلمون فى دينهم فى فلسطين وأفريقيا وغيرها من بقاع الأرض ويجبرون على الألحاد فى الاتحاد السوفيتى (7). وهكذا يدرك الشباب المسلم أن دينه على النحو الذى يفسره فقهاء العصر لم يقدم له العون فى أبسط ما يطالب به الإنسان الحر، أى فى الدفاع عن الوطن الإسلامى.

ويذكر الدكتور أبو ريان أنه إذا ماتناولنا أوجه الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى بلاد الاسلام، نجد تخنقاً شديداً، فلا نجد مثلاً بلداً واحداً منها تطبق فيه الديمقراطية بحذافيرها وترتفع فيه راية الحرية ويأمن الإنسان على نفسه من بطش الحاكم وعدوان السلطة، وتشيع فيه مبادئ العدالة والتكافل الاجتماعى، ناهيك بما نلاحظه فى أسى بالغ من إنعدام الروابط الثابتة المخلصة بين حكام هذه البلاد الذين يجمعهم الواقع المرير على أهواء متفرقة

ومصالح أنانية لا تدخل فيها المبادئ الإسلامية [illegible]، ولهذا فهم يشخصون بأبصارهم دائماً إلى الغرب، ويتبنى عبقريته فى كل ما يعن لهم من أمور جزئية أو كلية زعماً بأن دينهم لا يقدم لهم المساعدة فى حل مشكلاتهم.

وأخطر من هذا أننا على الرغم من أن لدينا جامعات كثيرة أنشأناها على نسق الجامعات الأوروبية، إلا أن هذه الجامعات لم تنجح تماماً فى تخريج المواطن المسلم الناضج والصالح للعمل فى وطنه، وحتى من يصلح من بينهم تلجئه ظروف التخلف والحقد والحسد والغيرة فى وطنه إلى النجاة بنفسه والعمل فى البلاد الأجنبية. ونحن وإن كنا نحبذ روح المغامرة بين الشباب إلا أن هذه الروح لا تبنى فى حقيقة الأمر على مصلحة الوطن أو حباً فيه، بل تنبع من أنانية جوفاء لا تفيد منها البلاد.

هذا فضلاً عن أن مناهج التربية والتعليم التى تخرج على أساسها أبناؤنا قد وضعها دهاقنة التربية فى الغرب، فمثلاً نجد أن التعليم الحديث فى مصر قد وضع أسسه التربية مستر «دنلوب»، وأعوانه، وهؤلاء كانوا لا يريدون أن تكون مصر مركزاً مزدهراً للعلم والثقافة، بل لقد كانت الغاية من التربية والتعليم هى القضاء على شخصية المتعلم حتى يخضع للمستعمرين، وتكوين طوائف من الموظفين الذين يجيدون العمل تحت إمرة الحكام الانجليز ومن يقربونهم من العملاء. وقد كانت هذه المناهج الفاسدة هى مقدمات الغزو الفكرى الثانية بعد الموجة الأولى الفرنسية التى كانت مصر ميداناً لها بعد غزو نابليون لأراضيها.

ويرفض الدكتور أبو ريان هذه الصور من التغريب والتى تحاول طمس الهوية العربية الإسلامية. وهو يشير أيضاً إلى تيار خبيث أوشك أن يقضى على شخصيتنا العربية الإسلامية، وهو محاولة القضاء على اللغة العربية لغة القرآن الكريم، عماد الدين ومعجزة الله العربية اللغة.

ويذكر الدكتور أبو ريان أن مخطط الغرب فى هذا المجال قد استهدف تحويل اللهجات المحلية إلى لغات قائمة بذاتها، لكل منها كيانه القومى

الخاص والمستقل، وبذلك ومع مرور الزمن يصبح القرآن غريباً فى لغته لا قدر الله، فينشأ الشباب فى الجزائر أو فى لبنان (8). أو فى المغرب وهم يتكلمون ويتعلمون بلغة غير لغة القرآن ويكون القرآن إذن فى لغته الفصحى فى حاجة إلى ترجمة إلى هذه اللغات المزعومة.

ومن أخطر الأمثلة التى يذكرها أبو ريان على ضرواوة هذه الحركة ما حدث فى الجزائر عندما كانت تئن تحت وطأة الاستعمار، فقد احتلت فرنسا الجزائر عام 1830 م وعملت منذ ذلك التاريخ على محو شخصيتها الإسلامية العربية، وذلك باتباع سياسة الإبادة الجماعية أولاً، ثم لما عجزت عن القضاء على الروح القومية فيها استخدمت أسلوب تحطيم وتخريب العقيدة والثقافة حتى تصبح الجزائر مقاطعة فرنسية خالصة، ووضعت لها نظاماً للتعليم العام على أساس أن تكون اللغة الفرنسية هى اللغة الأولى، أما اللغة العربية فلا تعتبر حتى من الدرجة الثانية، وكانت تدرس للتلاميذ نصوص من الأدب الجاهلى حتى يشعروا بمدى الاختلاف البين والشاسع بين لغتهم العربية المستخدمة فى حياتهم اليومية ولغة الجاهلية التى هى أكثر إمعاناً فى الإغراب والحوشية من أى لغة فصيحة فى العصور الإسلامية، وبذلك يمكن تكوين وجدان نافر ضد اللغة العربية التى هى لغة القرآن.

من كل ما سبق استطيع أن أقدم تصوراً موجزاً لموقف الدكتور أبو ريان الفكرى تجاه الغرب الأوربى أو «الآخر» وذلك فيما يلى :

1) تنكر الغرب الأوربى لفضل العرب والمسلمين على نهضته، فبدلاً من أن يعيد الجميل أو على الأقل يصونه أو يحفظه، بادر بالهجوم على البلاد العربية والإسلامية، واستعمر معظمها.

2) اتخذ الدكتور أبو ريان كمفكر موقف العداء من الغرب الأوربى إزاء هجماته المسعورة على الشرق الإسلامى سواء كانت هجمات مسلحة أم غزوات فكرية. وله فى ذلك بعض المؤلفات.

3) أكد الدكتور أبو ريان على أن الغزو الفكرى الغربى قد أثر تأثيراً بالغاً فى

الشرق الإسلامى، حتى أو شك الشباب المسلم المعاصر أن يصاب بالانفصام فى شخصيته أو بالاغتراب على أقل تقدير.

4) قدم الدكتور أبو ريان تصوره الخاص للخروج من هذه الأزمة، فدعى إلى مواجهة التحديات الغربية المتمثلة فى الصراعات الفكرية، وذلك عن طريق إعطاء الشباب قسطاً كبيراً من ثقافة الإسلام وقيمه ومبادئه الحقيقية حتى يمكن لهم أن يتسلحوا بها ضد الأفكار المهاجمة للاسلام. وقد رأى أن أحرى الطرق والمناهج بالاتباع تتحدد فى ثلاثة محاور رئيسية هى : التجديد والتحديث والتغريب ولكن من مفهوم عربى اسلامى، وبعد استبعاد اسلوب الجمود والإجترار الفكرى الذى تجاوزته الحركة الفكرية الإسلامية المعاصرة.

5) يتضح من النقطة السابقة أن الدكتور أبو ريان لم يدعُ إلى مقاطعة ثقافة وحضارة الغرب كلية، بل دعى إلى الاقبال على الصالح من منجزات هذه الثقافة وتلك الحضارة، والابتعاد والنفور فقط من الجانب السيئ منها، ذلك الذى يحاول أن يُفقد الإنسان المسلم المعاصر هويته وشخصيته المميزة[9].

هوامش الفصل السادس

1) ولد الدكتور أبو ريان بالإسكندرية فى شهر مايو من عام 1920 ،وبالاسكندرية كان تدرجه التعليمى بدءاً من المرحلة الابتدائية حتى حصوله على الماجستير فى الفلسفة من كلية الآداب عام 1950 مع مرتبة الشرف. كما حصل فى نفس العام على دبلوم العلوم الإجتماعية المعادل للماجستير من جامعة الإسكندرية وعين مدرساً مساعداً بقسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية فى نفس العام أيضاً. وفى سنة 1956 حصل على دكتوراة الدولة فى الفلسفة من السربون بباريس مع مرتبة الشرف الممتازة. ثم عاد للتدريس بجامعة الإسكندرية. وفى عام 1958 أعير للتدريس بجامعة بنغازى حتى عام 1962. ورقى إلى درجة استاذ مساعد فى الفلسفة عام 1963. ثم سافر بالإعارة إلى جامعة بيروت العربية من 1968 إلى عام 1971 ورقى استاذاً للفلسفة وتاريخها عام 1969. وعين رئيساً لقسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية عام 1972 وفى عام 1975. سافر بالإعارة إلى بيروت وعين عميداً لكلية الآداب جامعة بيروت العربية من عام 1977 إلى عام 1979. ثم عاد إلى جامعة الإسكندرية وعين رئيساً لقسم الفلسفة من 1979 إلى 1981 وسافر بالإعارة إلى المغرب كأستاذ للدراسات العليا بجامعة الرباط عام 1981 – 1982. وسافر بالإعارة إلى جامعة أم درمان بالسودان عام 1983 – 1984. وفى عام 1985 عين مديراً لمركز التراث القومى والمخطوطات. واستمر فى ذلك المنصب حتى يوم وفاته 1996/7/11.

2) منها مجلة الشاطئ، ومجلة الحكمة الفلسفية بلبيا.

3) من مؤلفات الدكتور أبو ريان الأخرى ما يلى :

- أصول الفلسفة الاشراقية عند شهاب الدين السهروردى.
- الفلسفة ومباحثها.
- النظم الاشتراكية، مع دراسة مقارنة للاشتراكية العربية.
- ترجمة المدخل إلى الميتافيزيقا لهنرى برجسون.
- فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة.
- قراءات فى الفلسفة (بالاشتراك).
- هرقليسط وأثره فى الفكر الفلسفى المعاصر.(بالاشتراك).
- أسس المنطق الصورى ومشكلاته (بالاشتراك).
- المدخل الإسلامى للايدلوجية العربية (بحث ألقى مضمونة فى اللقاء الاسلامى. المسيحى فى طرابلس ـ لبيا).
- الإسلام فى مواجهة تيارات الفكر الغربى المعاصر (الإسلام والماركسية).

- الإسلام السياسى فى الميزان.
- المنهج الإسلامى فى العلوم الإنسانية.
- هياكل النور للسهروردى الاشراقى - دراسة وتحقيق.
- اللمحات فى الحقائق للسهروردى الاشراقى - دراسة وتحقيق.
- كتاب المسائل فى الطب لحنين بن اسحاق - دراسة وتحقيق (مع آخرين).

هذا إلى جانب العديد من الأبحاث والمقالات المنشورة.

4) من أمثلة هذه الموجات التى يذكرها الدكتور أبو ريان : «الماركسية، وغيرها من الدعوات التى تنكر عالم الغيب وترفض فكرة الألوهية وتشجب الوحى وتلقى بالإنسان مثله مثل الجماد فى أحضان طبيعة يستنطقها التطور كما يزعم أتباع لامارك وداروين وسبنسر، وليس الدين فى نظر الماركسيين سوى أداة رجعية تستخدمها الطبقة الإقطاعية، والحاكمة للضغط على الطبقات الكادحة واستغلالها، فهم يزعمون أن العدالة لا تنزل من السماء بل تنبع من الأرض.

وإذا كان الماركسيون والمديون على السواء قد أسفروا عن موقف منكر للدين، فان طائفة أخرى رغبة من أصحابها فى التخفى وراء العلم ومنجزاته المعاصرة، نادوا فى القرن التاسع عشر بضرورةإحياء التراث العربى الإسلامى بمعزل عن الاسلام وعقائده، وهؤلاء هم العلمانيون الذين اختطوا هذا المنهج لإحياء العروبة المجردة من الدين، ولم يكن هذا الاسلوب سوى وسيلة ناجحة لمقاومة الدولة العثمانية الإسلامية باسم العروبة، ولم يلبث أن سار على الدرب مفكرون من أمثال شلبى شميل، وسلامة موسى، واسماعيل مظهر، وغيرهم، وقد أسسوا دعوتهم على مبادئ تفصل بين الدين والدولة، وترفع علم العروبة لتعزل العروبة عن الإسلام، والإسلام عن العلم.

5) يقول الدكتور أبو ريان إن المسلمين الأوائل - رغم إباحة الأفطار لهم فى الغزوات - كانوا يصممون على الاستمرار فى صيامهم، وكان هذا هو الزاد الروحى القوى فى الحروب الإسلامية الظافرة وفى المعارك القائمة على الثغور فى البر والبحر، وهذا هو معيار قوة الإسلام والمسلمين فى مواجهة الأحداث والخطوب، فالمسلم يكون أثناء صيامه أكثر قدرة فى الصبر على المكارة، لأن تقوى القلوب وتوجهها بذكر الله هو من أعظم الحوافز على الأخلاص والتفانى فى العمل والجهاد.

6) سورة النساء الآية 3.

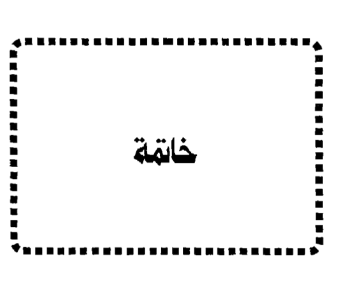
7) كتب الدكتور أبو ريان هذا الكلام قبل أن تتفتت وحدة الاتحاد السوفيتى وتستقل بفضل الله الجمهوريات الإسلامية.

8) يذكر الدكتور أبو ريان أن شخصاً لبنانياً يدعى سعيد عقل قام بوضع قاموساً لما أسماه باللغة اللبنانية، ووضع قواعد خاصة بها يريد بذلك أن تستقل اللغة اللبنانية عن لغة القرآن. ويعقب أبو ريان على ذلك قائلاً : نحمد الله أن هذا الرجل وأمثاله أعدادهم

محدودة فى لبنان أو فى غيره فلا يشكلون خطراً محيقاً باللغة العربية التى كان من حملتها والمدافعين عنها أب جليل مثل الأب أنستانس مارى الكرملى طيب الله ثراه، ومثل البستانى والجميل وغيرهم من أنصار نهضة الآداب العربية المحدثة من لبنان إلى العراق عبر سوريا وفلسطين.

9) رجعت بصفة عامة فى هذا البحث إلى معظم مؤلفات الدكتور أبو ريان المذكورة فى هامش رقم (3) وبصفة خاصة إلى ما يلى :

- الاسلام فى مواجهة تيارات الفكر الغربى المعاصر ،الاسلام والماركسية، دار المعرفة الجامعية 1985.
- النظم الاشتراكية، مع دراسة مقارنة للاشتراكية العربية.
- المدخل الاسلامى للايديولوجية العربية (نحو ايديولوجية عربية اسلامية).
- الاسلام السياسى فى الميزان، دار المعرفة الجامعية 1996.


خاتمة

خاتمة

رأينا فى هذه الدراسة كيف أقام الأسكندر الأكبر أمبراطوريته المترامية الأطراف. وجاء الحديث بشئ من التفصيل عن نشأة الإسكندرية، وكيف أنها كانت بمثابة الحلم الذى طالما كان الأسكندر يحلم به.

ورأينا فى هذه الدراسة كيف شهدت مدينة الإسكندرية فى عهديها البطلمى والرومانى نهضة علمية مزدهرة جعلت منها قبلة العلم التى يتوافر عليها العلماء والدراسين من جميع الأنحاء للدراسة والتحصيل وإجراء البحوث فى «الموسيون»، و «السرابيوم»، اللذين ضمت مكتباتهما أندر وأنفس الكتب والمخطوطات المعروفة للعالم آينذاك.

ورأينا كيف كانت مكتبة الإسكندرية مدرسة عالمية تضج بفطاحل المفكرين والعلماء من أمثال : الفيلسوفين الروحيين : فيلون، وأفلوطين، والكميائيين : بولوس المصرى، وزوسيوس، والعالمين الرياضيين : أوقليدس، وأرشميدس، والفلكى والجغرافى أراطثنيس، والنحوى أريستارخوس، والطبيبين: هيروفيلوس، وأرازيستراتوس.

وقد ركزت الدراسة على جانب واحد من جوانب نهضة مكتبة الإسكندرية العلمية، وهو الجانب الطبى. ولم تتوقف الدراسة عند هذا الحد، بل تتبعت مدى تأثر اللاحقين لمكتبة الإسكندرية بتراثها الطبى. ولم تجد الدراسة من الفترات العلمية المزدهرة التى أعقبت إغلاق مدرسة الإسكندرية على يد «جوستنيان» فى أوائل القرن السادس الميلادى، سوى نهضة العالم الإسلامى إبان الخلافة العباسية الغابرة. فقد فر علماء مدرسة الإسكندرية بعد إغلاقها فى العصر الجاهلى إلى بغداد عن طريق مدن الرها، ونصيبين، وأنطاكية، وجنديسابور، وذلك خلال قرن من الزمان.

ومن هذه المدن انطلقت حركة الترجمة والنقل التى شهدها العالم الإسلامى، والتى بدأت فى العصر الأموى، ووصلت إلى ذروتها فى العصر العباسى، ونقل على أثرها معارف وعلوم أمم كثيرة، وعلى رأسها علوم اليونان، والاسكندرانيين من اليونانية إلى العربية عبر السريانية.

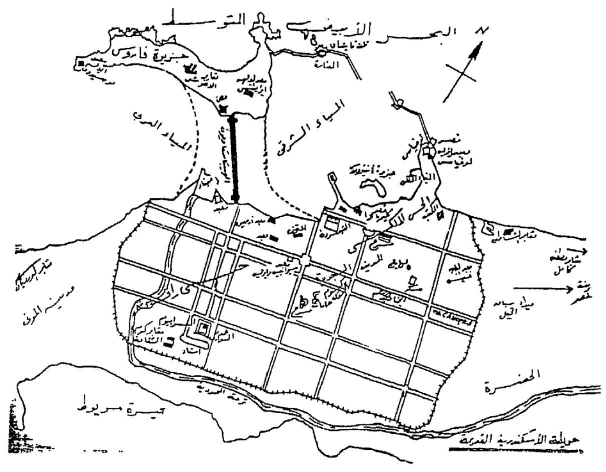
وقد أشارت الدراسة إلى أشهر التراجمة الذين شهدهم العالم الإسلامى، وهو حنين بن اسحق الذى لعب دوراً كبيراً فى نقل بعض العلوم، وخاصة الطبية إلى اللغة العربية. وقد افترضت الدراسة أن حنيناً يعتبر حلقة وصل بين مدرسة الإسكندرية الطبية، وأطباء العرب والمسلمين، وذلك بفضل نقله لكتب جالينوس الستة عشر المشهورة التى كانت تقرأ على الولاء، وغيرها إلى اللغة العربية.

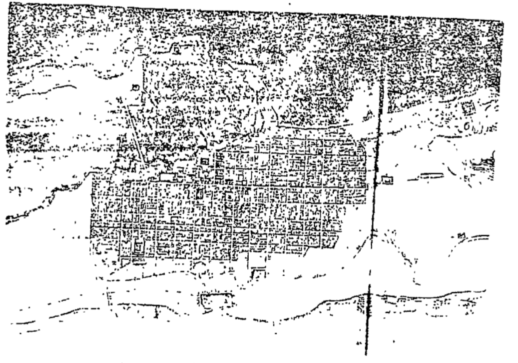
وأثناء حركة الترجمة والنقل لم يجد المجتمع الإسلامى ممثلاً فى علمائه، إلا أن يدلف إلى تراث الأمم الأخرى المنقول، فتوفر عليه العلماء، فشرحوا، وعلقوا، ثم زادوا، وابتكروا، فراج العلم وازدهر فى تلك الفترة فى معظم الأقطار الإسلامية، وخاصة بغداد عاصمة الخلافة.

وبالنسبة للمجال الطبى، فقد تناولت الدراسة بعضاً من أعمال الرازى الطبيب، وخاصة موقفه من آراء ونظريات السابقين عليه، ذلك الموقف الذى اتسم بعدم التسليم بما تنصه الكتب إلا بعد النقد والتمحيص، والتثبت بالتجربة، تلك التى اعتبرها الرازى معيار الفصل بين الحق والباطل. ولذلك فقد انتقد الرازى مشاهير الأطباء سواء اليونانيين أو الاسكندرانيين، لاسيما ابقراط، وجالينوس ليبرهن بذلك من ناحية على أن العلم لا يؤخذ بالرجال، ومن ناحية أخرى على أن الحضارات الإنسانية تمثل سلسلة متصلة الحلقات تؤثر السابقة منها فى اللاحقة وهكذا فمن مدرسة الإسكندرية الطبية، إلى حنين بن اسحق الترجمان، إلى أبى بكر الرازى الطبيب تواصل علمى عبر حلقات أخرى، انتهى إلى التقدم الطبى المزهل فى الحضارة الغربية المعاشة.

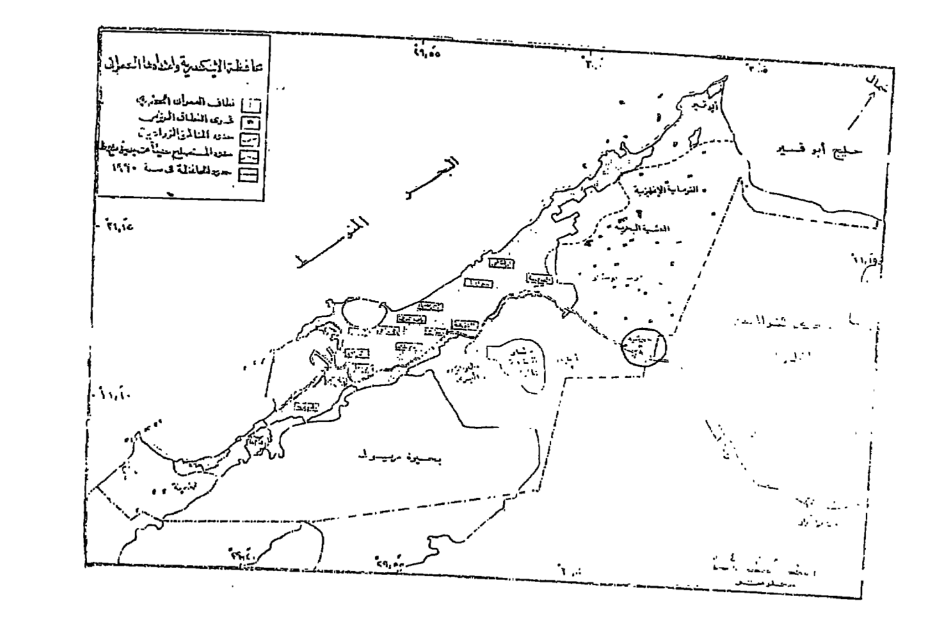
واستمراراً للتواصل العلمى لمكتبة الإسكندرية جاء الحديث فى الفصل الخامس من تراث الإسكندرية المخطوط وأهمية إحياء (الفعال) منه، مع الإشارة إلى بعض خطوات مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية الحالى. وتناول الفصل السادس والأخير بعض جوانب فكر علم من أعلام الإسكندرية المعاصرين الذى أسهم بنصيب وافر فى ازدهار الحركة الثقافية بها، بل ومصر والعالم العربى، وهو الدكتور محمد على أبو ريان عليه رحمة الله.

والله أعلم.. والحمد لله فى الأولى والآخرة.





خريطة الإسكندرية القديمة


محافظة الإسكندرية وامتدادها العمراني
نطاق العمران الحضري
قرى النطاق الريفي
حدود المناطق الزراعية
حدود المستصلح حديثاً
حدود المحافظة في سنة ١٩٦٠
البحر المتوسط
خليج أبو قير
شمال
أبو قير
بحيرة مريوط

فهرس الكتاب

رقم الإيداع
٩٩ / ١٠٩٤٨

